الجـــمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعـــبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعـة الشهيد حمة لخضر الوادي

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

# قصيدة الجبل لابن خفاجة

## - أبعادها النفسية والجمالية –

مذكرة معدّة ضمن متطلبات نيل شهادة الليسانس في اللغة العربية وآدابها

إعـــــداد الطلبة:

✓ إلياس دباخ

✓ محمد العيد حمادي

✓ محمد العيد رضوان

تحت إشراف الأستاذ:

* عبد القادر عباسي

السنة الجامعية :(1436-1437هـ/2015-2016م)

بسم الله الرحمن الرحيم

قَالَ تَعَالَى:

﴿ وَمَا تَوْفِيقِي
إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ
وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴾

التوبة: ٨٨

# شـــكر وعـــرفان

يقول تعالى في محكم كتابه ولَدِينِ خِطابهِ : " **لَئِنْ شَكَرتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ** " .

فالحمد لله الذي يقل مع جلاله حمدُ الحامدين ، والشكر له على ما تفضَّل وأنعمَ.

والصلاة والسلام على خير المرسلين .نبي الله الأكرم .

ونتقدم بالشكر إلى من رسم لنا طريق النجاح ، ورعى هذه الثمرة منذ أن كانت فكرة في الأذهان إلى غاية إخراجها في هذه الصورة .

إلى الأستاذ **عبد القادر عباسي** .

**إلياس دبـــاخ**

**محمد العيد حمادي**

**محمد العيد رضوان**

# إهداء

إلى الأرض التي لطالما رسمتُ اسْمها في مخيلتي وفي قاموس أفكاري ، وحَضَنَتْ رُؤايَ صَبيًّا ، إلى " سوريا " أسأل الله لها النصرَ والتأييد عاجِلاً غيرَ آجِلٍ ، وأن يَمحَقَ كلَّ مَنْ غرَزَ خِنْجَرًا في خاصرة الأمة.

**إلى جُرْحِ العُروبة في الـشَّـــــآمِ**

**ومَنْ في حُبِّهَا طاشَـــــتْ سِهَامِي**

**كسَرْتِ القلبَ قلبِي ثـمَّ إنِّـــــي**

**كسرْتُ الميمَ في عَجْـزِ الكــلامِ**

**إليكِ دمشقُ أهْدِي كلَّ حرْفٍ**

**وَمَـا تُغنِـي الــحُرُوفُ عَنِ الغَرَامِ**

**أُهْدِي هَذا العَمَل .....**

**إلياس دباخ .**

# إهداء

أهدي ثمرة جهدي إلى من قال فيهم تعالى " وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا "

إلى أبي رحمه الله واسكنه فسيح جنانه .

وإلى أمي الغالية ونور عيني .

إلى جدتي أطال الله عمرها .

إلى أخواتي وأبناء عمي : الأستاذ الفاضل أحمد رامي حمادي ، والعابد ، ولبنى ،

وإلى البنوتة الصغيرة ريان ، وإلى كل من فرح لفرحنا وحزن لحزننا .

وإلى كل أساتذتي الكرام .

**محمد العيد حمادي**

# إهــداء

إلى كلّ من علّمنِـي أنَّ الآمـال العظيـمة تصنعُ الأشخاص العُظـمـاء , إلى مَن بوُجُـودهما رأيتُ الجمال شائعا في كُلّ ذرّاته , إلى اللّذين لا يُقدّران بقيــمة مهْما قدّرتْ , ومهما بالغت فإنـّي حتْما مُقصّر , إلى من قدّستْ العلم دائما وإن حُرمَتْ منــهُ , أمّـي أطال الله عمرها , ومنْ أخَـذ على عاتقهِ مُهـمّة تربيَتـي وتعليـمي , أبي جزاهُ الله عنّي كـــلّ خير ....

إلى منْ جـاء يمدُّ يدَ العون لي علانية , أو سرّا بدعوة خالصة , بعدما تعبتُ من تحمّل أعباء الحياة وحدي , إخوتي وإخواتي وأهلي .....

إلى كـلّ منْ لـهُم سبقُ الفـضل في ارتقــائي في العلم درجة أساتذتي الكرام في مُختلف مراحل التعلـيم .

إلى زميليَ إلياس دبّـــاخ , ومحمد العيد حمّادي , اللّذين أشْعلا جذوةَ الحمــاس في نفسي , وكان النجاحُ دائما حليفَنا و عنواننا .

ولا أنْسى السيّد عبد السلام مديــني مستشار التغذية بقمار , الذّي أشعُر بوُجوده أنَّ الحياة جديدة كلّ يوم كالشمس , جزاهُ الله عنّي كل خير ,إضافة، أثني جميل الثناء والشكر والتقدير, لعمال مكتبة محمد الصغير لـوكة بقمار, الذّين ساعُدونا بالمراجع المناسبة , و إلى كامل الأسرة الأدبيَة في جامعة الشهيد حمّة لخضر .

أهدي هذا العمل المتواضـع راجيّا من الله الثباتْ , والتقـدُّم لـي ولكّل طالب علم ينــيرُ هذا العالم بفضله .

**محمد العيد رضوان**

# مقدمة

# مـــقـــــدمـــــة

الحمد لله الذي تقدست عن الأشباه ذاته ودلَّت على وجوده آياته ومخلوقاته ، والذي وســـــع الخلائق خيره ولم يسعِ الناس غيره ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد صفيِّه من خلقه وخِيرة رُسله ، أما بعد :

إن الطبيعة هي هذا الكون الفسيح ، بما فيه من ليل ونهار ، وسماء وأرض ، بما في الليل من ظلام وقمر ونجوم ، وبما في النهار من شمس مشرقة ، وضياء ساطع ، وبما في الأرض من جبال وسهول ، ورياض ومروج ومفازات ، وأنهار وبحار ، وبما في الفضاء الواسع من غيوم ورياح ، ونسائم وأمطار وبرق ورعد ، وما بث الله فيه من حياة وأحياء، وحركة وسكون وتناسق وجمال ، وما يعتريه من تغير وتبدل وانبعاث وفناء .هي هذا كله ، بما ينطوي عليه هذا الكل من شمول واتساع ، ومعان وأسرار.

والطبيعة بهذه الصفة هي أم الفنون، إذ قلَّ أن نجد عملا فنيا مبدعا يخلو من عناصرها ومعطياتها، وآثارها ، فقد كانت ولا تزال ملهمة الفنانين من شعراء ورسامين وموسيقيين ، ينشدون في أحضانها وسائل فنهم ،ويجدون في ظواهرها وأسرارها منبعا ثـرًّا لأحاسيسهم وأفكارهم وتصوراتهم، وإن اختلفت تلك التصورات عمقا وضحالة ، تبعا لاختلاف مستويات التجربة الفنية عند كلٍّ منهم.

ثم إن الشاعر بالتحديد هو إنسان متمرد بما وهب من إحساس مرهف وشعور رقيق ، وذوق سليم مؤهل أهلية كافية لأن يحس بهذا الكون ، بكل مظاهره ومجاليه ، وأن ينفذ إلى ما وراء هذه المظاهر والمجالي ليدرك إدراكا واعيا ما تنطوي عليه من أسرار ، وما تخفيه في أعماقها من معان وألغاز، ثم يفرز تلك التجربة الشعورية في عمل فني ، فيه من الطبيعة كواقع ، بقدر ما فيه من الذاتية كأحاسيس ومشاعر ورؤى ونظرات وأفكار.

وانطلاقا من هذه القيمة التي تحظى بها الطبيعة في العمل الفني أولا ، ومن الحب لها بحكم النشأة في ربوعها ثانيا ، نجد الشاعر ابن خفاجة قد ارتمى بين أحضانها راميا همومه وأحزانه عليها لتبلغ درجة

الأم الرؤوم التي ما يطيق ولدها عنها فكاكا .

وقد كان اختيار هذا الموضوع دون غيره من المواضيع لأسباب موضوعية عدة: أولها أن الأدب الأندلسي بصفة عامة لا يزال حقلا بكرا يحتاج إلى كثير من الدراسات المعمقة التي تذهب به بعيدا عن السطحية والسرد التاريخي ، فتلتفت إلى النصوص الشعرية ذاتها وتقترب من جماليتها الفنية .

وهناك دافع ثانٍ حدا بنا إلى هذا الاختيار ألا وهو محاولة الكشف عن بعض الخصائص النوعية التي تميز بها الشعر الأندلسي ، هذا الأخير الذي لطالما اتهم بالتبعية للمشرق وعدم التجديد ، مع أن شعر الطبيعة في ذلك الزمن يمثل إلى حد بعيد صدى وجدانيا وطرفا من أطراف الخصوصية الشعرية الأندلسية .

إلا أن هناك دافعا أساسيا ذاتيا يعد في حقيقة الأمر الدافع الأول والأقوى وهو شغفنا بالشعر الأندلسي عامة ، وبنصوص ابن خفاجة خاصة ، مع الرغبة الملحة في التعرف أكثر على أدب هذا الشاعر وشخصيته .

هذا وقد نهض البحث على جملة من الأسئلة التي حاولنا الإجابة عنها ، منها ما يلي :

- كيف كان موقف الشاعر العربي من الطبيعة ومفرداتها عبر العصور المختلفة ؟
- ماهي أهم المجالي التي استلهمت قرائح الشعراء من الطبيعة فوصفوها وصفا مكنها من الخلود في الذاكرة الشعرية ؟
- كيف صاغ ابن خفاجة تجربته مع الجبل على المستوى الجمالي والنفسي ، وماهي أهم الأسس التي اتكأ عليها في إخراج هذه التجربة في أجمل حـــلـــةٍ ؟

وللإجابة على هاته الأسئلة اعتمدنا في الدراسة على إجراءات منهجية متعددة منتزعة من مناهج مختلفة رأيناها مناسبة لطبيعة الموضوع وقادرة على دعمه وتصويب وجهته نحو هدفه انطلاقا من قناعتنا بأن الدراسة المنهجية الجيدة لأي بحث ، تقتضي الاستعانة بالمناهج

التي تساعد الباحث على الولوج إلى عمق النص الشعري وإن اقتضى الأمر تجاوز المنهج الواحد والمزج بين مناهج متعددة .

ومن المناهج التي استخدمنا بعض إجراءاتها المنهج التاريخي الذي اعتمدناه في تتبع شعر الطبيعة عبر العصور الأدبية ، وكذلك المنهج التفكيكي في جانب تفكيك النص الشعري إلى عناصر جزئية ومحاولة التعمق في قراءته ومحاورته واستنطاقه ، وهذا من خلال المنهجين الجمالي في استجلاء جماليات النص الشعري والكشف عن سر الجودة الفنية ، والمنهج النفسي من خلال الربط بين نفسية الشاعر وعمله الأدبي .

وقد أفرزت القراءة وضع خطة للموضوع وهي كالتالي:

تقسيم الموضوع إلى فصلين ، الفصل الأول النظري والذي خُصَّ بمهاد تاريخي لوصف الطبيعة في الشعر القديم .

أما الفصل الثاني فقد عني بالتعريف بابن خفاجة ووصفه للطبيعة ، ثم قراءة في قصيدته " الجبل " من حيث أبعادها الجمالية والنفسية .

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة جملة من المصادر والمراجع يأتي في مقدمتها ديوان ابن خفاجة كمصدر رئيسي ، إضافة إلى مصادر تاريخية وأدبية أهمها :

- حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص .

محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي .

- عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي.
- مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه.
- عبد الله محمد العضيبي ، النص وإشكالية المعنى .

والحقيقة أننا قد عانينا زمرة من الصعوبات والتي كما هو حال أي دارس ، منها قلة المراجع في بعض الجزئيات واستعصاء تحصيلها ، وصعوبة الدراسة النفسية من خلال التطبيق خاصة وأن تلك الدراسات النفسية المعمقة شبه منعدمة ، ونقص إمكانياتنا المعرفية في هذا

المجال والتي كادت أن تعصف بعزيمتنا في مواصلة البحث وإتمامه لولا توفيق الله سبحانه وتعالى الذي بفضله تحدينا كل أشكال المعاناة .

ولا يسعنا في الختام إلا أن نتقدم بالشكر لأستاذنا المشرف عبد القادر عباسي الذي كان لنا نعم المعين والذي شرفنا أيَّما شرف بقبول الإشراف ، فله منا جزيل الشكر والعرفان .

وأخيرا نرجو من خلال هذه الدراسة أن نكون قد وفقنا ولو بالنزر القليل في خدمة التراث الأدبي ،

وإذ بنا نضع هاته الدراسة بين أيديكم ، فإننا نلتمس العذر لما شابها من نقائص ، وحسبنا أنَّا حاولنا والله نسأل التوفيق والسداد .

# الفصل الأول

# الفصل الأول

## وصف الطبيعة في الشعر القديم

### ( مهاد تاريخي )

**مدخل .**

**أ) في الشعر الجاهلي .**

**ب) في الشعر العباسي .**

**ج) في الشعر الأندلسي.**

## مـــدخل :

لقد كانت الطبيعة و مازالت منبعا مهما للإلهام لكافة الشعراء في كافة العصور و الأزمنة و الأمكنة، حيث كان الشعراء و لازالوا يجدون في الطبيعة وسيلة مناسبة لشرح خلجات نفوسهم وبيان أحاسيسهم فكانوا يرتمون في أحضانها فيعكسون لنا صورا جميلة منها ، انطبعت في قلوبهم وظهرت على ألسنتهم.

وقد أبصر الشاعر ما حواليه وامتزج به امتزاجا قويا فوصف وشمل بوصفه البلاد أرضا وسماءً وما في البادية من حيوان ونبات وجماد ،"وما هنالك من مظاهر البيئة من أطلال وحل وترحال وحروب ومجالس لهو وأنس وما تحمله الطبيعة من أمطار وصحو ورياح وإلى غير ذلك من مشاهد الطبيعة، ولم يكن الوصف عادة غاية في ذاته بل كان الشاعر يلجأ إليه كبرهان يدعم به حججه أو وسيلة ينال بها رغائبه أو سبيلا يسلكه إلى تحريك الشعور وإثارة العواطف . " [1]

وشـــعر الـطبيعة هو" الشعر الذي يتخذ من عناصر الطبيعة الحية والصامتة مادته و موضوعاته" [2] ، والذي يلفت نظرنا هو أن رؤية الشاعر للكون قد اختلفت وفقا لاختلاف طبيعة عناصره، ولهذا فإن نظرته إلى الصوامت أو الجوامد قد اختلفت عن نظرته إلى الكائنات الحية وبخاصة الحيوان، " فالصوامت بما تشمل من ثوابت كالجبال والتلال والصحاري، أو متحركات كالنجوم والكواكب تمثل عنده الثبات و الاستمرار، وترمز للخلود أما الكائنات الحية فإن وجودهاوجود موقوت بحيث تنتهي إلى الموت والفناء. وكأن الذي يأخذ بحظ موفور من الحياة والمتعة تنتهي حياته ويموت، أما هذه الجوامد أو الصوامت التي لا تستمتع بحياة كالإنسان و الحيوان فإنها تظل باقية."[3]

---

[1] حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت، دت ،الطبعة السادسة، ص60.

[2] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، دت، ص284.

[3] حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، الطبعة الأولى، 2007، ص387.

و قلما خلا أدب أي أمة من شعراء أحبوا طبيعة بلادهم، وتغنوا بها في أشعارهم تعبيرا عن انفعالاتهم بمشاهدتها، أو تمجيدا لها أو إظهارا لمدى قدرتهم على التصوير.[1]

و الأدب العربي كأي أدب آخر، "لم يخل من شعراء تطرقوا في شعرهم إلى وصف كل ما وقع عليه حسهم من مشاهد الطبيعة في بيئاتهم و عصورهم المختلفة ، ومنهم من غلبت عليه الإجادة في وصف أشياء معينة أكسبتهم خصوصية فيها واشتهارا بها."[2]

" وبعد فللبيئة العربية في الأدب الأثر القوي، ولها في الوصف بصفة أخص الأثر الأقوى، منها يستمد معانيه، ويستنبط أفكاره، ويتخذ تشبيهاته، ويستوهبها مادة أوصافه."[3]

وباب الوصف عند العرب أكبر فنون الشعر، " ذلك لأنه يأتي في أكثر أغراض الشعر ممتزجا بها، وقل أن نجد قصيدة بنيت على موضوع الوصف وحده، اللهم إلا في القطع القصار."[4]

[1] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ، ص284.

[2] المرجع نفسه، ص284.

[3] عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1368هـ-1949م، ص53.

[4] المرجع السابق، ص284.

## أ) في الشعر الجاهلي :

" اتصل الشاعر الجاهلي بالطبيعة اتصالا وثيقا وتفاعل معها بكل مظاهرها وظواهرها فلم تحجبه عنها أسوار ولا قصور، وأصبحت له بمثابة الأم التي تعطيه كل ما تستطيع"[1]، وقد ذهب ابن رشيق إلى أن " الشعر إلا أقله راجع إلى باب الوصف"[2] فإن أكثر العرب قديما جروا في الوصف على شرح حال الشيء وهيئته على ما هو عليه في الواقع، لإحضاره في ذهن السامه كأنه يراه أو يشعر به.

ولا سبيل لحصر ضروب الوصف عند العرب، لأنهم وصفوا كل ما رأوه أو عاينوه أو خالط نفوسهم. " وأحسن الوصف ما صدر عن علم ، وأفتن الخيال في عرضه، فالعلم يعطي مادة الحقيقة، والخيال يكسبها صورة المبالغة الشعرية المحببة."[3]

والمتتبع لنشأة الوصف في الشعر العربي يرى أنه اللون الغالب على الشعر القديم مع ما بلغه من قدسية وعقيدة، وفي الدراسة التي قدمها الدكتور جواد علي لتاريخ العرب قبل الاسلام يقول عن عقيدة الجاهليين وارتباطها بالطبيعة: "وألهت بعض الأقوام والقبائل الظواهر الطبيعية، لتوهمهم أن فيها قوى روحية كامنة مؤثرة في العالم وفي حياة الإنسان، مثل الشمس وبعض النجوم"[4]

كما " أن هناك توسعا في هذه العبادة تراه عند بعض الأقوام البدائية، يصل إلى حد تقديس الأحجار والأشجار والآبار والمياه وأمثال ذلك، إذ تصوروا وجود قوى روحية كامنة فيها، فعبدوها على أن لها أثرا خطيراً في حياتهم".[5]

فمن الطبيعة الحية وصف الجاهليون أشهر حيوانات البيئة وهي الناقة التي أحبها الجاهلي لأنها سفينة صحرائه التي بها ينتقل ومصدر غذائه وكسائه، " كذلك فقد وصف الفرس التي تحمله في

---

[1] حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، ص381.

[2] نورة الشملان، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى، 1980م، ص67.

[3] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، المرجع السابق، ص285.

[4] جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام،ج5-القسم الديني-مطبعة المجمع العلمي العراقي السابق 1955،ص22.

[5] المرجع نفسه، ص22-23.

الغارة وتفلت به من لحاق العدو، وأكثر الشعراء من وصف الصراع بين حيوانات بيئتهم، ونقلوا ذلك الصراع نقلا فنيا تمثلت فيه روعة الفن ودقة الملاحظة."[1]

كما أنهم وصفوا كواسر السباع وأوابد الوحوش وجوارح الطيور ، ومن الطبيعة الصامتة وصفوا من النبات ضروبه وألوانه، ومن السماء نجومها وكواكبها، وسحائبها، وبروقها وأمطارها، ومن الأرض سهلها وجبلها، ومرابعها ومصايفها، وبالأخص الديار الخالية التي حل فيها الآرام مكان الأحبة والخلان، وتعفية الرياح والأمطار لآثارها.

ولم يخل الشعر الجاهلي من وصف " الرياض والأزهار، ولا سيما في أقوال الشعراء الذين خالطوا الحضارة ورأوا بساتين الحيرة أو غوطة الشام أو غيرهما من مدن العراق والشام."[2]

ومن أشهر من وصف الطبيعة في العصر الجاهلي نجد امرأ القيس " الذي قضى في الطبيعة ومعها أكثر أيامه وأجملها حتى أصبحت الطبيعة حية صامتة، جزءا من ذاته وخدينا لحياته ، وقد تأملها مليا حتى وقف على أخفى خطوطها ورأى ما عظم فيها وما دق، من الأفق العريض إلى عيون الوحش المتفرقة حول الخباء كالخرز فهام بها وحلت من فؤاده مكانا رحبا حتى تمثلت له في كل كلام يقوله، فوصفها وأكثر من وصفها".[3]

ونجد الشاعر قد وصف الصحراء في بردها وحرها، في برقها وأمطارها، في عواصفها ورياحها، وأحاط بجبالها وسهولها ورمالها، وتكلم عن نباتها وأشجارها الشائكة وذكر طيرها، وحيوانها وأخرج الأماكن التي يمر بها في ترحله مصورا جغرافيا يكاد يكون وافيا في وصف الليل وما ينتابه في ظلامه الدامس من الخوف والأرق وسما إلى الكواكب يتبين مطالعها ومغاربها، ويتضجر من ثباتها إذا وجد الليل طويلا في حزنه وهمومه.

---

[1] نورة الشملان، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره،ص67.

[2] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، المرجع السابق، ص285.

[3] حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت، الطبعة السادسة، ص88-90

يقول في ذلك:"[1]

وليـلٍ كموجِ البَحْرِ أرخَى سُدولهُ عـليَّ بأنـواعِ الهُـمُوم ليَـبتَلِي
فَقُلْـتُ لَـهُ لـما تَمَطّى بصـلبهِ وأردَفَ أعْجازاً ونَـاءَ بِكـلـكَلِ
ألا أيّها اللّيلُ الطّويـلُ ألا انْجَلِ بِصُبْحٍ ومَا الإصْبَاحُ مِنكَ بِأمثَلِ
فيـا لـكَ مـن ليلٍ كـأنَّ نـجـومَهُ بِـكل مُغـار الفُـتـل شـدَّت بيـذْبُـلِ

وقد تحدث الشعراء عن الجبال في أثناء حديثهم عن قطع المفاوز ، وقدرتهم على اختراقها وعبورها بناقة تقرب البعيد وتصل ما تباعد من الجبال ، قال امرؤ القيس :[2]

فدع ذا وسلِّ الهمَّ عنكَ بـجسرةٍ ذمُولٍ إذا صَامَ النَّهارُ وهَـجَّـرا
عليهَا فتًى لمْ تحملِ الأرضُ مثلَـه أبـرَّ بميثاقٍ وأوفَى وأصْـبَـرَا
هو المُنزِلُ الآلافَ من جوِّ ناعِطٍ بَني أسَد حزْنًا من الأرضِ أو عَرا

وكذا وصف الشعراء السراب وكانوا يختارون أوقات النهار حين يمتد هذا السراب ،" فإذا كل هذه المظاهر تتحرك في الصورة وتتراقص أجزاؤها فكأنها مجاميع من شجر الدوم والنخل تارة ، أو السفين تارة أخرى"[3] ، قال امرؤ القيس في ذلك :

فشبَّـهتُهُمْ في الآلِ لـمَّا تكمشّوا حـدائقَ دوْمٍ أو سَفيـنًا مقيَّرا
أو المكرعاتِ من نخيلِ ابنِ يَامنٍ دُوين الصَّفا اللائِي يَلينَ المشَقَّرَا
سـوامقَ جَـبَّارٍ أثـيثٍ فروعـُهُ وعالينَ قنوانًا من البسرِ أحْـمَـرَا

[1] ، امرؤ القيس، الديوان ، تحقيق عبد الرحمان المصطاوي دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية،1425هـ-2004م،ص48.
[2] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 87 .
[3] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1970 م ، ص 29 .

وتطرق كذلك إلى وصف الوديان ، وكان ورود الوديان في الشعر يأتي في كثير من الأحيان مقترنا بذكر الأحبة ، والاشتياق إلى ديارهم[1] ، يقول في ذلك :

وتحسَبُ سلمَى لا تزال ترى طَلًا  من الوحشِ أو بيْضًا بميثاءَ مِحلالِ

وتَحْسَبُ سَلمَى لا تزال كعهدنَا  بوادي الخزامَى أو عَلى رسِّ أوْعَالِ

وقد وصف كذلك البرق في قوله :[2]

أعنِّي على برقٍ أراهُ وميضٍ  يُضيء حَبيًّا في شماريخَ بيضِ

ويهدأ تاراتٍ سنـــاهُ وتارةً  ينوءُ كتَعتابِ الكسيرِ المهِيضِ

فالشاعر يطلب من صاحبه أن يساعده على النظر إلى البرق الذي يبدو متلألئا لامعًا ، ويبدو ... معادلا للشاعر في معاناته حيث تراه يتحرك كالبعير المهيض الكسير .

ونجد من خلال البيتين أنَّ وصفه صادق دقيق ، وقوام الصورة عنده على حد ما قال الدكتور سيد نوفل " الحب للطبيعة ، فمنها المواد والألوان ، والصدق فلا مبالغة ولا إحالة ، والبساطة فلا تكلف ولا تصنع في الألفاظ والمعاني ، والإيجاز فلا حشو ولا فضول ، والدقة فلا كلمة نابية ولا أخيلة غير مطابقة وإنما جو محكم يسود الوصف كله ".[3]

كما أنه وصف الرياح . وقد وضعت العرب لكل ريحٍ اسما يختلف باختلاف مناطق هبوبها ، فالتي تهوي من مطلع الشام هي الشمال ، لأن مهبها من بلاد العرب فما يلي الشام والتي تهوي من مطلع الشمس أطلقوا عليها الصَّبا كما سموها القيول " وكانت العرب تجعل بيوتها بإزاء الصبا ومطلع الشمس . وقد أكثر الشعراء من ذكرها ، لهبوبها في أوائل الربيع حين يستوي الليل والنهار ."[4]

---

[1] المرجع نفسه ص 30 .

[2] امرؤ القيس ، الديوان ، تحقيق عبد الرحمان المصطاوي ، ص 121 .

[3] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 88 .

[4] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 53 .

قال امرؤ القيس :[1]

إذا التفتتْ نَحوي تضوَّع ريحُهَا نسيمَ الصَّبا جاءت بريَّا القُرنْفُلِ

وقال عبيد بن الأبرص :

كأن صبًا جاءتْ بريحٍ لطيحِهِ من المسكِ لاسطاَعَ بالثمَنِ الغَالِي

وقال زهير:

فلمَّا أن تحمَّلَ أهلُ ليلَى جرَتْ بيني وبينهم الظباء

جَرَتْ سنَحًا فقلت لها أجِيزِي نوًى مشمولةً فمَتَى اللقَاءُ

أما الدبور فهي الريح التي تقابل الصَّبا وهي ريح تهب من الغرب ، والصّبا تقابلها من ناحية الشرق.[2] والعرب تكره الدبور لأنها تحفل السحاب ويقل فيها المطر . قال عدي بن زيد :

ثم صاروا كأنهم ورقٌ جفَّ فألوَتْ بهِ الصَّبا والدَّبورْ

كما أننا نجد الشاعر الجاهلي قد وظَّفَ رموزا طبيعية أخرى مع تعدد دلالاتها ، "فخيال الشاعر واقعي يرتكز على الحقيقة ، ويتناول المألوف من المناظر ويرسم منه خطا أو خطين ، وإذا الصورة تبدو بملامحها كأنها كانت كاملةً بجميع جزئياتها وتفاصيلها ، وإذا الصورة رائعة في إيجازها واتساع إيحائها" [3]، كوصف النجوم التي اهتم العرب بها لأنها تقودهم إلى موضع حاجاتهم ، كقول الأعشى :

كأن نجومها رُبطتْ بصخر وأمراس تدورُ وتستريدُ

إذا ما قلتُ حان لها أفولٌ تصعدت الثريا والسعودُ

[1] الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، بيت الحكمة ، الطبعة الأولى ، 2010 ، ص 9 .

[2] المرجع السابق . ص 57 .

[3] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 89 .

كما استخدم شعراء شرقي الجزيرة العربية صورة الأنهر المتدفقة في المدح لإظهار فيض الممدوحين ، قال النابغة يمدح النعمان بن المنذر ويعتذر إليه :[1]

فَمَا الفُرَاتُ إذَا هَبَّ الرياحُ لَهُ تَرمي غَوارِبُهُ العِبْرَيْنِ بالزَبَـــدِ

يَوْمًا بِأَجْوَدَ مِنْهُ سَيْبَ نَافِـلَةٍ وَلا يَحُولُ عَطَاءُ اليَوْمِ دُونَ غَدِ

" فالشاعر لا يكتفي بتشبيه ممدوحه بالنهر وإنما يماثل بينه وبين النهر في فيضانه وامتلائه بالماء ، وينتهي عن طريق هذه المفاضلة التمثيلية إلى نفي أن النهر أكثر عطاءً من الممدوح "[2]، وإذا كـــانت بعض عناصر الطبيعة تهبُ الأرض الحياةَ ،" فإن الشاعر الجاهلي قد استعار في وصفه للإنسان هذه العناصر ليجعله معطاء ، لهذا نراه يشبه بعض السادة بالغيث الذي هو مصدر من مصادر الحياة "[3].

يقول بشر بن أبي خازم :

كنتَ غيثا لهنَّ في السَنَةَ الشهْـ باءِ ذاتِ الغُبارِ والإمْحالِ

وتقول الخنساء :

ومَا الغيثُ في جَعدِ الثَّرَى دمثُ الرُّبَى تبعَّـــقَ فيـهِ الـوَابـلُ المتهَلِّلُ

بأفـضلَ سيبًا مـن يَديـكَ ونِعـمـــةً تعُمُّ بهَا بلْ سيْبُ كفيَّكَ أجملُ

ويقول النابغة :

وأنت الغيثُ ينفع ما يليه وأنتَ السُمُّ خالطهُ اليَرُونُ

ويصف الأعشى ممدوحهُ فيجعل الناس يطلبون المطر ببركته فيقول :

أغرُّ أبلج يُستسقَى الغمَامُ بهِ لوْ صَارعَ النَّاسَ عَنْ أحْلامِهِمْ صَرعَا

---

[1] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 60 .

[2] حسني عبد الجليل ، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، ص 395 .

[3] المرجع نفسه ، 395 .

" كما أنه من الطبيعي أن ينال الشجر والنبات والأزهار والثمار نصيبا وافرا من حديث الشعراء الجاهليين ، لاتصالها المباشر بحياتهم ، وعلاقتها بحاجاتهم التي يعتمدون عليها في مواجهة الحياة ، ومجابهة عوارضها " [1]، وقد وصل تعلقهم بالشجر واعتزازهم حد التقديس ، فمما يذكر في ذلك أن ذات أنواط شجرة عظيمة خضراء ، كانت قريش ومن سواهم من المشركين يأتونها كل سنة ، فيعلقون عليها أسلحتهم ويذبحون عندها ، وقومون يوما ، وكان الرجل إذا خرج في سفر عمد إلى شجر الرتم فعقد بعض أغصانه ببعض ، فإذا رجع من سفره وأصابه على تلك الحال . قال : لم تخني امرأتي ، وإن أصابه قد انحل قال : خانتني [2]. قال الشاعر :

هل يَنفعنْكَ اليومَ إنْ همَّت بهمْ كثرةُ ما تُوصِي وتَعقَادُ الرَّتَمْ

كما أن النخل استرعى الشعراء في شعرهم ، إلا أن بساتين النخيل في الغالب كانت تقرن بعبارة الجنة مضافة إلى مكان ، فقالوا جنة يثرب ، وجنة ملهم ، وكانت تشبه الإبل لكثرتها ببساتين النخيل، قال بشر :

والمانحُ المائةَ الهجانَ بأسْرِهَا تُرجَى مطافِلهَا كجنَّةِ يثرِبِ

وقال أيضا :

وأوهبُ للكومِ الهجانَ بأسْرِهَا تُسَاقُ جَميعًا مثلَ جنَّةِ يَثْرِبِ

وكانت توحي " لهم ألوان النخلة وقد زها ثمرها وتلون ثمرها واخضر سعفها ، بألوان الظعون اللامعة ، وما على الهوادج من ألوان الوشي والعهون ، وهي تغطي الأحبة ، لتحفظهم من حرارة الشمس ، وتقيهم لفح الهجير الذي يشوي الوجوه والأبدان"[3] ، قال امرؤ القيس :[4]

عَلونَ بأنطاكيةٍ فوقَ عَقمةٍ كجرمَةِ نخلٍ أو كجَنَّةِ يثرِبِ

---

[1] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 67 .

[2] المرجع السابق، ص 70

[3] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 73 .

[4] امرؤ القيس ، الديوان ، ص 74 .

كما أن الشاعر الجاهلي قد وصف الأزهار إلا أنها أقل ذكرا في الشعر من الشجر والنبات . لقلتها في أرض الجزيرة ، وقلة موسمها الذي تعيش فيه بسبب العوارض الطبيعية القاسية التي تمر بها ، ولهذا كانت صورها غير واضحة في أذهان الشعراء ، "ويعد الأقحوان الذي شبهت به الثغور لبياضه أعم ذكرا ، وقد اقترن وصفهم للثغور وتعرضهم للأقاح بصورة الضحك والابتسام ، لأنهم وجدوا في صورته صورة الثغر ، فأوراقه صغيرة ومفلجة . وفي إدراك هذه الصورة حس دقيق ، وتفكير يحمل نضجا عقليًا ، وكثيرا ما كانت تختلط أوصاف الثغر والأسنان والبياض في تشبيهاتهم"[1] ، قال طرفة يصف ثغر صاحبته :[2]

تَضحَكُ مَنْ مثلَ الأقاحِي حوَى  من ديمةٍ سكبُ سماءٍ دلوح

وقال الأعشى :

وتَضحكُ عن غُرِّ الثنَايَا كأنَّهُ  ذُرَى أقحُوانٍ نَبتُهُ مُتَنَاعِمُ

واستشهد أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ببيت بشر بن أبي خازم :

يُفلجْنَ الشفَاهَ عنْ أقْحُوانٍ  جَلاهُ غِبُّ سَارِيةٍ قَطَارُ

وأثار أيضا زهر الأقحوان الأبيض في نفوس بعض الشعراء صورة الشيب فحملهم على التشبيه به .

أما الخزامى فهو نبت " زهرُهُ من أطيب الأزهار ، وريحه من أنعش الرياح وكانوا يأتون على ذكره في حديثهم عن الرياض و المياه المنسابة ، ثم يقرنون ذلك بريح الخزامى ، لأنها من مستلزمات هذا الحديث ، قال عبيد بن الأبرص :"[3]

وريحُ الخزامَى في مَذانِبِ روضَةٍ  جَلا دمْنُهَا سارٍ منَ المزنِ هَطالِ

وقد أشار الشنفرى إلى الريحان وطيب ريحه وتوهجه وتفرقه في كل جانب واستطابة نسيمه عند العَشاء ، لأنه أبرد للريح عند مغيب الشمس ، فقال :

---

[1] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 89 .

[2] المرجع نفسه نقلا عن ديوان طرفة ص 169 .

[3] المرجع نفسه، ص 90 .

فبتنَا كأنَّ البيتَ حُجِّرَ فوقَنَا بريحانةٍ رحَّتْ عشاءً وطـلَّتِ

بريحانةٍ مِنْ بطنِ حليةَ نُوِّرتْ لهَا أرجٌ مَا حَولهَا غيرُ مُسنَتِ

وإلى جانب هذه الأزهار عرف الجاهلي مجموعة من الفواكه كالعنب والأترج والتفاح والتين ، ولكن العنب أغلبها ذكراً .

" وأحصى الأصمعي ستة عشر نوعا من العنب الطائفي في كتاب النخل والكرْم بأوصافها وأحجامها وألوانها ، وذكر أبو حنيفة صنفا من العنب أسود كأنه البلوط في طوله" [1]، كانت تشبه به أصابع العذارى المخضبة ، وقد كانت بعض المناطق تعرف بأعنابها التي تُتخذ منها الخمور ، وقد أشار إلى بعضها الأعشى بقوله :

أحبُّ أثافتُ وقْتَ القطافِ ووقْتَ عـــصارَةِ أعنابــهَا

وقد كان عصير العنب يذكر في حديث الشعراء عن ثغور الأحبة ووصفهم لرضابهم ، قال عروة بن الورد :

بآنسةِ الحدِيثِ رُضابَ فِيهَا بعيدَ النومِ كالعِنبِ العَصيرِ

ويتضح لنا من خلال هذه النماذج الشعرية بعض الحقائق التي يمكن أن تقرر في هذا المجال ، إذ استوحوا من هذه الأشجار والنباتات والأزهار صورا لما يريدون أن يصفوه أو يمدحوه أو يتغزلوا فيه ، سواء أكان ما لفت نظرهم فيها الهيئة أو اللون أو التكوين ، ويظهر ذلك جليا في النماذج الشعرية التي استعملوا فيها هذه الأصناف بصورة مباشرة وبصورة غير مباشرة ، ولا بد للشعراء أن يتعرضوا بعد ذلك إلى صور قد تبدو نادرة في حديثهم عنها ، ولكنها لم تشكل اتجاها معينا .

ومن هنا وبعد الإلمام بعناية الشاعر الجاهلي بالطبيعة الصامتة نجده قد عني كذلك وبشق أوفر حظا بالطبيعة المتحركة وأولاها اهتماما بارزًا منقطع النظير، ولاسيما الناقة والفرس، وله ما يبرر هذه العناية بهذين الحيوانين أكثر من عنايته بسواهما، " فإن الناقة أعظم خلق أرضي في نظره؛ لما

[1] المرجع السابق نقلا عن أبي حنيفة ، النبات ، ص 45 .

يفيده منها، ولما تسديه إليه من صنائعها، فهي صديقة حله وترحاله، ورفيقة ظعنه وإقامته، وإنها تظمأ فلا تشكو الصدى، وتجوع فلا تظهر الأسى ، وتنقاد له انقياد الصديق لا انقياد الذليل وتطيعه طاعة الرفيق لا طاعة الرقيق ، فكيف به بعد كل ذلك لا يحفظ ودها ولا يحسن نعتها؟ " [1]

ولا عجب " إذا سمى العربي الإبل المال أو النعم ، ولا عجب أن تشغل الناقة المكان الكبير عند شعراء الجاهلية، فتستأثر بعناية العرب، وتستحوذ على جزء كبير من شعرهم، فهي قِرى ضيفافهم."[2]

قال طرفة:

وبَرْك هَجُودٍ قدْ أثارَتْ مخافــَتي بواديهَا أمْشِي بِعَـــضْبٍ مُجَرَّدِ

فمرَّت كهاةً ذاتَ خيفِ جَلالةٍ عقيلـةُ شيخٍ كـــالوبيلً يَلنْدَدِ

يقولُ وقد ترَّ الوظيفُ وسَاقَهَـا ألسْتَ ترى أنْ قدْ أتيتَ بمُؤيدِ

ويقول طرفة واصفا ناقته ببراعة:

فإذَا تَـغَـالى لَـحمُـهَـا وتَحسرَتْ وتقطعتْ بـعدَ الكلالِ خدامُهَا

فلهَا هـبابٌ فـي الزمَـامِ كأنَّـــهَا صهباءُ راحَ مع الجنوبِ جهامُهَا

أو ملمعٍ وسِقَتْ لأحْقَبَ لاحَهُ طـردُ الفُـحُولِ وضربُها وكدامُهَا

يَعلُو بهَا حدبُ الأكامِ مسحَّجًا قـد رابـهُ عصـيانُهَا ووحـامُـــهَا

بِأخرَّةِ الثُـلـبُـوتِ يَـربَـأُ فـوْقَـــهَا قَـفْـرَ المراقب خوفُها آرامُـــهَا [3]

---

[1] عبد العظيم علي قناوي ، الوصف في الشعر العربي ، ص 59 .

[2] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 98 .

[3] عبد الرحمان عبد الحميد علي ، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، د ت ، 1428هـ ، 2008 م ، ص 241 .

ونجد طرفة كذلك عند " نعته لعشيقته نعتا جميلا هاج في صدره الهم فنجا من تذكاره واحتضاره على ناقة وصف أعضاءها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة " [1] بقوله:

وإنّي لأمضِي الهمَّ عندَ احتضَارِهِ بهوجاءَ مرقالٍ ترُوحُ وتغْتَدِي

تُبَاري عِتاقًا ناجيَاتٍ وأتبَعَتْ وظيفا وظيفًا فوقَ مورٍ مُعبَّدِ

صهابيةِ العثنونِ موجدة القرا بعيدة وخدِ الرحْلِ موارَةِ السيَدِ

وأتلعُ نهاضٌ إذا صَعَّدتْ بِهِ كسكانِ بُوصِيٍّ بدجْلةَ مُصعِدِ

وقد وصف أبو ذؤيب الإبل في شعره، "ووصفه لها لا يأخذ طابع التفصيل والوقوف عند كل جزء من أجزائها وإعطائه حظه من الوصف كاملا، إنما يتطرف إلى جزء واحد ويسجل فيه ملحوظة دقيقة كأنْ ينظرَ إلى العرق المتصبِّبِ من أجسامها وهي تسير فيشبهه بالكساء الأسود "[2] حين يقول:

ثم شربْنَ بنيطٍ والجمالُ كأ نَّ الرشحَ منهُنَّ بالآبَاطِ أمْسَاحُ

ونرى الأعشى يصور ناقته " تشكو إليه وقد أعياها الإجهاد وهزل جسمها لما أصابها من ألم حتى أصبحت كأنها نعش محمول فوق أرجلها، كما نراه يخاطبها ألا تشكو إليه هذه الآلام وأن تنتجع ممدوحه أهل الندى والفعال "[3] فيقول:

وتـرَاهَا تَشْكُو إليَّ وقدْ آ لتْ طليحًا تَحذَى صُدورَ النِّعَالِ

نقَبَ الخفُّ للسُّرَى فترى الأنْ ساعَ مِنْ حِلٍّ ساعةٍ وارتحَالِ

أثـرَتْ فِـي جناجنَ كإرانِ ال مَـيتِ عولينَ فوقَ عوجِ رسَالِ

لا تشكي إليَّ مِنْ ألمِ النَّسْـ عِ ولا مِنْ حَفًا ولا مِنْ كَلالِ

---

[1] المرجع السابق ، ص 241 .

[2] نورة الشملان ، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره ، ص 76 .

[3] حسني عبد الجليل يوسف ، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، ص 408 .

لا تشكِي إليَّ وانتجِعِي الأسُـ ود أهلَ النَّدَى وأهلَ الفِـعَالِ

ونرى شكوى الناقة تتكرر عند المثقب العبدي حيث يقول:[1]

إذا مَـا قُمـتُ أرحُلهَا بليْلٍ تـأوَّهُ آهةَ الـرجُلِ الحَزينِ

تقولُ إذا دَرأتُ لـهَا وضِينِي أهـذَا دينُـهُ أبَـدًا ودِينِـي

أكـلُّ الـدَّهْرِ حِلٌّ وارتحالٌ أمَـا يبقِي عليَّ ومَا يَقينِي

فأبـقَى باطِلِي والـجِدَّ منهَا كدُكَّانِ الـدَّرَابِـنَـةِ المطِينِ

وقد رأينا أن الشاعر الجاهلي قد اتخذ الناقة وسيلة لاجتياز الصحراء وعبورها ، وأنها كانت أداته لمواجهة قهر المكان، يقول أوس بن حجر:[2]

وقدْ تُلافِي بيَ الحاجاتِ ناجيةٌ وجناءُ لاحقةُ الرجلينِ عيْسُورُ

كما أن الشاعر يركب ناقته منطلقا بها حين تحيط به الهموم ومن ذلك قول علقمة بن عبدة:

فدَعْهَا وسلِّ الهمَّ عنكَ بجَسْرَةٍ كهمكَ فِيهَا بالرِدَافِ خَبيبُ

كما يتخذها الشاعر وسيلة لبلوغ دار قومه فيقول المرقش الأكبر:

فهلْ تبْلُغنِّي دارَ قوميَ جسْرةٌ خنُوفٌ علنْدَى جَلعدٌ غيْرُ شارفِ

ويقول الأعشى:

فعلَى مثلِهَا أزورُ بني قيْـ سٍ إذا شطَّ بالحبيبِ الفِراقُ

وعبيدُ بنُ الأبرص، لا يجد واسطة لقطع المفاوز والفلوات، إلا على نوق صيحرية خفيفة صعبة، تشبه الثور الوحشي، الموشى بالسواد والبياض فيقول:

---

[1] المرجع السابق نقلا عن المفضليات ص 292 .

[2] أوس بن حجر ، الديوان ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت ، ط3، 1979 ، ص 40 .

ولقدْ أقطَعُ السَباسـبَ والْ  شهبَ علَى الصَّيحريِّةِ الشِّمْلالِ

عنـتَريـسٍ كأنَّـها ذُو شـومٍ  أحرجَتْـهُ بالـجَوِّ إحْـدَى الليَالِي[1]

وعمرو بن قميئة يصف ناقته التي قطع بها الصحراء فيقول:

وبيـداءَ يلعبُ فيها السَّرا  بُ يخْشَى بهَا المدلجُونَ الضَّلالا

تَجَاوبْتُـهَا راغِبًـا راهِـبًـا  إذَا مَا الظُّبَاءُ اعْتَنقْنَ الـظــلالا

بضامـرَةٍ كـأتَـانِ الثَّمِيلِ  عيـرَانَـةٍ مـا تَشَـكَّى الــكلالا [2]

وهناك أيضا قيمة إقتصادية كبرى للناقة، فهي مصدر من مصادر العيش ، ففي لحمها ولبنها وجلدها ووبرها منافع كثيرة، كما أنها قوة إقتصادية متحركة تلائم حياة البادية .[3]

يقول الأعشى:

جـعــلَ الإلـهُ طعامَنَا في مَالنَا  رزقًا تَضَمَّـنهُ لنَـا أنْ ينْــفَدَا

مـثلَ الهِضَابِ جَـزارةً لسُيُـوفنَا  فـإذَا تُـراعُ فإنَّـهَا لــــنْ تُطردَا

ضَـمنَتْ لنَا أعْـجَازُهُنَّ قُدورَنَا  وضرُوعهُنَّ لنَا الصريحَ الأجْرَدَا

ويقول أيضا:

لنا نعمٌ لا يَعتري الذمَّ أهلُــهُ  تُعقَّرُ للضَّيفِ الغريبِ وتُحلبُ

ويُعقَّلُ إنْ نَابَتْ عليهِ عظيمةٌ  إذا مَـا أنَاسٌ مُوسِعُـونَ تغيَّبُوا

---

[1] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشاعر الجاهلي ، ص 103 .

[2] المرجع نفسه ،الصفحة نفسها .

[3] حسني عبد الجليل يوسف ، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، ص 410.

ولو حاولنا استقصاء كل ما قالوه في الناقة لطال بنا القول، فهم عالجوا كل جانب من جوانبها، وتحدثوا عن كل عضو من أعضائها مستخدمين في سبيل ذلك كل ما وقع تحت أبصارهم، لعقد مقارناتهم، وقد دلت صورهم التي قدموها على قدرة تصويرية ناضجة، وتعد الصور التي ذكرناها سلفا من أكمل الصور وأشملها لإحتوائها على الشكل العام لهذا الحيوان العجيب، الذي وقف أمامه الشاعر الجاهلي وقفه التأمل والحيرة والإعجاب .

كما وصف الشاعر الجاهلي الفرس وهو في نظره أجمل ما خلق الله، وهو إلى هذا الجمال الفتان " صديق حربه وسلمه، ولهوه وجده، وطرده وصيده، لا يضن عليه بجهد، ولايبخل دونه بشأو، إذا حارب كان له أوفى من سيفه ورمحه، وإذا ابتغى صيدا كان قيد الأوابد، أو أراد طردا آلى على نفسه أن يلحق المطارد ." [1]

" كما أن الجاهليين قد اشتهروا بالمحافظة على أنسابها، وعدم الخلط بين سلالاتها فنراهم يخلدون ذكرها وصفاتها في قصائدهم، ومقطعاتهم، وقد كان إطلاق أسماء على الخيل عادة مألوفة ومعروفة ليتمكنوا من تمييزها، وليعرفوا الأصيل منها من غيره." [2]

ومن هنا نستطيع القول أنه " ليس في مملكة الحيوان نوع يتداخل تاريخه مع تاريخ الإنسان كالخيل، ولسنا نخشى الإتهام بالمغالاة إذا قلنا: إن ظهورها وترويضها لخدمة الإنسان كان من العوامل الحاسمة في سير التاريخ، لأن قيام كثير من الممالك القديمة كان رهنا بمدى اقتناء الخيول السريعة أو بمدى معرفتها لوسائل استخدامها."[3]

وكان لهم فيها من التباهي والتفاخر والتنافس ما يدعو إلى التأمل، ففي إكرامها إكرام للمرء نفسه، لأنها وقاية للنفوس، وفي ذلك يحث أحد بني عامر بن صعصعة قومه فيقول:

بنِي عَامرٍ مَالي أرَى الخَيلَ أصْبحَتْ        بِطانًا وبعضُ الضَّمرِ للخيلِ أفضَلُ

بنِي عَامـرٍ إنَّ الـخُيُـولَ وقَــــايةٌ        لأنـفُسكُمْ والموتُ وقــتٌ مُؤَجَّلُ

أهـيـبُوا لـهَا مَـا تُـكرِمُونَ وبَاشِـــرُوا        صيَانتَـها والـصَّونُ للخيـلِ أجْـمَلُ

مَتَى تـكرمـوهَا يُـكرمُ الـمرءُ نـفْسَهُ        وكُـلُّ امرِئٍ منْ قومهِ حيْثُ ينْـزِلُ

---

[1] عبد العظيم علي قناوي ، الوصف في الشعر العربي ، ص 51 .

[2] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 107 .

[3] المرجع نفسه ، ص 107 .

وكثر وصف الخيل وصفًا واقعيًا ، وإن كان بعض الشعراء قد أعطى لحصانه صورة أسطورية لكن ذلك لم يتم من منطلق تقديسها وإنما بوصفها وسيلة يستخدمها الشاعر في صيده وحربه ويحركها ويستنزف قوتها. وفي فضل الخيل يقول امرؤ القيس:[1]

الخيرُ ما طلعَتْ شمسٌ ومَا غربَتْ  مُطلَّبٌ بَنواصِي الخَيلِ مَعصُوبُ

ويقول الطفيل الغنوي:

وللخيلِ أيَّامٌ فَمَنْ يَصْطبرْ لهَا  ويعرفْ لها أيَّامَهَا الخيرَ تُعْقِبُ

وليس أدل على إعزاز الخيل وكرامتها على أهلها ورفعتها في نظرهم من قول امرئ القيس:

وباتَ عليهِ سرجُهُ ولجامُهُ  وبَاتَ بعَينِي قائمًا غيرَ مُرسَلِ

كما أننا نجد العربي " يتغنى بامتلاكه الفرس، ويفخر بإهتمامه بها، وولعه بركوبها، ولم يمنعه الإقتار من الحصول عليها، لأنها مكسبه في كل رهان وحصن يتحصن به تجاه كل معتد ، ووسيلة يستعملها في الحرب والصيد، وقد جمع أبو دؤاد من منافعها ما برر له الاحتفاظ بها فقال" :[2]

علقَ الخيلَ حُبُّ قلبِي وَليدًا  وإذا ثـابَ عـنْديَ الإكثـارُ

عَـلقَـتْ هِـمَّتِي بِهِنَّ فـمَا يَمْـ  ـنَعُ مِنِّيَ الأعنَّـةَ الإقْتَـــارُ

جنَّةٌ لـي فِي كُلِّ يَوْمٍ رِهَـانٌ  جُمِّعَتْ فِي رهانِهَا الأعْشَارُ

وانـجِرارِي بِهِنَّ نحوَ عَدُوِّي  وارتحَالِيَ البلادَ والتـسْـيَارُ [3]

[1] امرؤ القيس ، الديوان ، ص 82 .

[2] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 107 .

[3] حسني عبد الجليل يوسف ، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، ص 414 .

ومن النماذج الجيدة في وصف الخيل النموذج الذي قدمه امرؤ القيس في وصفه الفرس الذي يخرج به للصيد فيقول:[1]

وقـــدْ أغْتَدِي والطيرُ في وُكنَاتِهَا بِمُنْجَـرِدٍ قَيـدِ الأوابِـدِ هَيْكَــــلِ

مِكـرٍّ مِفَـرٍّ مُقـبلٍ مُــدبرٍ معًا كجلمودُ صَخرٍ حطَّهُ السَّيْلُ منْ عَلِ

كُميتٍ يَزلُّ اللبدَ عَنْ حَالِ مَتْنِهِ كـمـا زلـتِ الصَّـفـوَاءُ بـالـمُـتـنَـزِّلِ

على الذَّيْلِ جيَّـاشٌ كأنَّ اهْتِزَامَهُ إذَا جــاشَ فيـهِ حَميُهُ غـليَ مـرجَـلِ

يَزِلُّ الغُلامُ الخِفُّ عـنْ صَهواتِهِ ويُـلـوِي بـأثـوابِ الـعَـنيـفِ المُثـقَّلِ

لهُ أيطـلا ظبْيٍ وسَاقَـا نَعـامَـةٍ وإرخـاءُ سـرحَـانٍ وتقـريـبُ تَـتْـفُــلِ

و" كذا قال أبو عبيدة بأن أبا دؤاد أوصف الناس للفرس في الجاهلية والإسلام، وقال ابن الاعرابي: لم يصف أحد قط الخيل إلا احتاج إلى أبي دؤاد وقد لقب بنعات الخيل لأنه أحسن نعتها ."[2]

فنجد أبا دؤاد يصف حصانه وصفًا رائعًا دقيقًا، فهو ضامر الجسم من كثرة الجري، قوي البصر، طويل العنق، مستقيم صلب، شديد الطرف يسبق من يقوده، تهتز جميع أعضاء جسمه إذا جرى. وهو متكامل الأعضاء وتؤدى حركاته في سرعة ونشاط وحيوية . قال:

وقدْ أغتــدِي فِي بَيَـاض الصباحِ وأعـجـازِ لـيـلٍ مــولىَّ الـذَّنَـبْ

بــطـــــرفٍ يُــنــازعُـنِـي مَرسَـنًـا سَلوفَ المُقادَةِ مَحضَ النَّسَبْ

طـواهُ الـقـنـيـصُ وتَـعْــــــــدَاؤُهُ وإرشاسُ عـطفَـيـهِ حتَّى شَسَبْ

[1] الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، ص 33 .

[2] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 111 نقلا عن الجزائري ،كتاب نخبة عقد الأجياد في الصافنات الجياد ، ص 100.

بعيدُ مَدَى الطرف حاظى البضِيعَ  مُمِرَّ القرَى مسمَهِرَّ العَصَبْ[1]

أما الفرس عند عنترة العبسي فهو أداة يحركها الفارس مستنزفا كل إمكانياتها. فارس قاهر يريد أن يقهر بفرسه وينتصف به لنفسه من الشر ويحقق به بطولته التي تخلصه من عبوديته.

يقول عنترة:[2]

يَدْعُونَ عَنترَ والرِّماحُ كأنَّهَا  أشطانُ بئرٍ في لبَانِ الأدْهَمِ

مازلتُ أرمِيهمْ بِثغرة نحرِهِ  ولبانِهِ حتَّى تسربَلَ بالدَمِ

فازورَّ مِنْ وقعِ القَنَا بِلبَانِهِ  وَشَكَا إليَّ بعَبْرةٍ وتحمحَمِ

لو كانَ يَدْري ما المحاورةُ اشتَكَى  ولَكَانَ لوْ عَلمَ الكَلامَ مُكلِّمِي

والخيلُ تقتَحِمُ الغُبَارَ عَوابسًا  مَا بَيْنَ شَيْظمةٍ وأجودَ شيظمِ

أما ضخامتها وعلوها، فقد أكثر الشعراء من ذكرهما، " فشبهوا الفرس الضخم بالبناء العالي وشبهها أبو دؤاد بالثور الوحشي النشيط بالقوة، فتكاد الصورة تبرز عند أبي دؤاد، حينما جمع في فرسه من صفات الشدة ما أحكم قوة فرسه ومنحه القدرة على هذه الشدة فقال":[3]

ولقدْ أغَتدِي يُدافعُ رُكنِي  أُجُولي ذُو مَيعَةٍ إضْرِيجِ

مُخلط مزيل معنٍّ مُفنٍّ  مُطرَّحٍ مُضرَّحٍ جَمُوحٍ حَزوجِ

ومن حب الجاهليين للخيل أنهم كانوا يؤثرونها بألبان الإبل حتى تقوى .

[1] عبد الرحمان عبد الحميد علي ، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ، ص 241 .

[2] الخطيب التبريزي ، شرح المعلقات السبع ، ضبط محمد بن أحمد القدي ، دار المحابر ، الجزائر ، ط 2، 2011 ، 201 .

[3] نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 112 .

يقول المتلمس:[1]

أبـقَـتْ لنَا الأيامُ والـ لـزَبـاتُ والعَانِي الـمُرهَّـقْ

جُـردًا بأطنــابِ البُيُو تِ تَعَلُّ مِنْ حلبٍ وتَغبقْ

والأجرد من الخيل الذي يسبق الخيل وينجرد عنها لسرعته.

وقد أسموا الفرس ملبونة إشارة إلى أنها تسقى باللبن. يقول عوف بن عطية بن الخرع:[2]

وأعْدَدْتُ للحرْبِ مَلبُونَةً تَردُّ عَلَى سَائِسـيهَا الحِـمَارَا

ويواجه حاتم الطائي من يلومونه على البذل والكرم بجعل الفرس واحدة مما سيدخره بعد إنفاق ماله وإتلافه طلبا لخلود الذكر فيقول:

سأدْخَرُ مِنْ مَالِي دِلاصًا وسابحًا وأسـمـرَ خَطبًا وعـضْبًـا مُهَنَّدَا

وذلكَ يَكفينِي مِـنَ المَالُ كلـهُ مَصُونًا إذَا مَا كانَ عِنْدِي مُتلَّدَا

وقد وصل من شدة قرب الخيل إلى وجدان الإنسان الجاهلي أن طلبوا منها بكاء فارسها إذا فقدته في ميدان القتال:

تقول الخنساء:[3]

ولْتبكِهِ الـخَيلُ إذَا غُودرَتْ بــسَاحةِ الموتِ غَداةَ العَثَارْ

كما نرى الشاعر يحيل شهادة بطولته إلى الخيل وكأنما أصبحت هذه الخيل بديلا على الفرسان الذين يركبونها، وهذا ما نجده عند عنترة بن شداد العبسي، " فكأن شهادة الخيل أصدق من شهادة

[1] حسني عبد الجليل يوسف ، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص ، ص 419 .

[2] المرجع السابق ، ص 419 .

[3] المرجع السابق، ص420.

الإنسان والذي قد يرتبط هذا بواقع عنترة الذي جعله يقدم سؤال الخيل على الفرسان الذين كانوا كثيرا ما ينكرون بطولته فيقول:" [1]

هَلاَّ سألتِ الخيلَ يا ابْنَة مَالكٍ إنْ كنْـتِ جَاهلةً بمَا لـمْ تَعْلـمِـي

يُخبركِ منْ شهَدَ الوقيعةَ أنَّـنِي أغْشَى الوَغَى وأعِـفُّ عندَ المغْنَمِ

ومن خلال هذا العرض نخلصُ إلى أهمية هذا الحيوان بالنسبة للحياة العربية وندرك الحاجة القصوى التي كانت تلح على العربي للاهتمام به حتى بلغت مظاهر الاعتزاز به، وتقريبه والاعتناء بتربيته درجة لم تجدها عند غير العرب من الأمم، فهو يريده وسيلة للحرب، يطارد به خصومه، ويريده حصنا يتحصن به، وسبيلا إلى الصيد والقنص ليقع على الحيوان الذي يسد بلحمه حاجة تلح عليه، أو فسحة رغب في قضائها مع أصحابه، وهو بالتالي زينة ولهو وفروسية، وأداة للطلب والهرب.

[1] الزوزني، شرح المعلقات السبع، ص167.

## ب) في الشعر العباسي :

أما في العصر العباسي فإن المتطرق إلى شعر الطبيعة آنذاك يجده قد اختلف بإختلاف البيئة والواقع ، فإذا كان الجاهليون ومن بعدهم بعض الشعراء من أبناء الصحاري والفيافي ، قد صوروا كل ما شاهدته أعينهم ، وما أحسوا به من موجودات الطبيعة في الصحراء – الحي وغير الحي – فإن أبناء المدن في العصر العباسي قد ألموا بالبساتين والرياض ، فعاشوا في هذه الطبيعة الجميلة ينعمون بالزهور والنور ، وينظرون إلى السماء وأفلاكها ، والأنهار والبرك والقصور المشيدة ، والسفن ومرافق العيش الجديدة ،" فكانت حياة ناعمة مترفة لكثير من طبقات الأمة ، وذهب الشعراء مذاهب بعيدة في وصف هذا الكون الجديد ، واستطاع بعضهم أن يحلق بجناحين في آفاق حديثة ، وتعدت ببعضهم أجنحة الشعر عن التحليق ، فلبث يردد صور القدماء و ألفاظهم ".[1]

وقد كان الشعراء في العصر العباسي يعيشون الطبيعة ومظاهرها لحظة بلحظة ، وكان لوصف الطبيعة في شعرهم المجال الأرحب "إذ استطاعت التجربة الشعرية عبر معالجتها المختلفة لموضوع الطبيعة أن تربط بين الكلمة الشاعرة والوجود ، كما استطاعت أن تذيب الطبيعة وتتوحد معها ، وأن تنقلها من موقفها السلبي اللامكترث إلى الموقف الإنساني الحي المتفاعل والمتجادل مع حياة الإنسان وطموحه ".[2]

ومن أبرز الشعراء الذين وصفوا الطبيعة في هذا العصر أبو تمام الذي استرعت الطبيعة اهتمامه واستهوته واستولت على فؤاده ، وشغلت القسم الأكبر من وصفه ،" فقد فتن بجميع مظاهرها ، وفصولها وحركاتها ، وتوفر على التمتع بكل جمال فيها ووصفه والتغني به ، وقد أبقى لنا لوحات متنوعة في الأزهار والرياض والربيع والمطر والبرق ..."[3]

---

[1] داوود سلمان الشويلي ، الطبيعة في شعر أبي تمام ، ص 22 نقلا عن جميل سعيد ، الوصف في شعر العراق في القرنين الثاني والثالث الهجريين ص 27.

[2] المرجع نفسه ، ص 23 .

[3] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 490 .

وشاعرنا أبو تمام قد وقف من السماء موقف الإنسان والشاعر ، فراحت قصائده تتغنى بها ، كعنصر رئيس من عناصر الطبيعة ، أو ككناية عن شيء ما ، أو تشبيه لشيء ما .

فها هو يجعل للسماء خيطا ، وهو من باب الكناية ، يكني به المطر ، فيقول :

فَسَقَاهُ مسكَ الطلِّ كافورُ الصَّبا  وانحلَّ فيهِ خيطُ كلِّ سماءِ [1]

وإن بكاء الشاعر على ممدوحه ، يجعل برق السماء مضيئا وأصوات الرعود عالية ، أي أن السماء تتجاوب مع حزن الشاعر :

آه لوقــعِ البينِ يَــا بْـنَ محـمدِ  بينُ المحب على المحب شديدا

أبْكِي وقدْ سَمَتِ البُرُوقُ مضيئةً  من كلِّ أقطارِ السمَاءِ رُعُودَا [2]

وهو إذ يتغزل ، فإنه لا يلوم الحساد ، لأن حبيبه شبيه هلال السماء ، وهو طوع يده :

كَيْفَ أَلُومُ الحَسُودَ فِيكَ وقَدْ  رَأَى هِلَالَ السَّمَاء طوعَ يَدِي

كما أنه وصف الكواكب كونها لعبت دورا كبيرا في حياة العربي ، من أبناء الوبر والمدر على السواء ، إذ كانت لهم سبيلا لمعرفة الكثير من الأمور الجوية والمناخية .

فمكارم ومحاسن ممدوحه ، أصبحت ذات شأن حتى أنها ارتفعت إلى مكانها تريد ثأرا من بعض الكواكب :[3]

مَحَاسِنُ مَنْ مجدِ مَتَى يُعرفُوا بهَا  مـحاسنَ أقـوامٍ تكنْ كالـمَعَايِبِ

مَكارمُ لجّت في عُلوٍّ كأنَّهَــا  تحُاولُ ثأرًا عندَ بعضِ الكَواكـبِ

[1] داوود سلمان الشويلي ، الطبيعة في شعر أبي تمام ، نقلا عن أخبار أبي تمام للصولي ص 180.

[2] المرجع نفسه ، ص 180.

[3] أبو تمام ، الديوان ، تقديم محي الدين صبحي ، دار الأبحاث ، الجزائر ، ط 1 ، 2009 ، ص 150.

ومن الكواكب التي عني بها أبو تمام في شعره وورد ذكرها كثيرا ، الفرقدان ،وهما الشمس والقمر ، وكذا الشعريان وهما "الشعرى العبور" وهو نجم كبير يُزهر ، و"الغميصاء " تقابلها وبينهما المجرة . والثريا وهي أشهر هذه المنازل ، وأصلها من الثروة وهي كثرة العدد وهي ستة أنجم ظاهرة ، وعندما يمدح سليمان بن وهب فإنه يدعو له بنوال الثريا أو الشعرى فيقول :

نَـلِ الـثُّـرَيَّـا أوِ الشِّعْرَى فَلَيْسَ فَـتًى  لَـمْ يُغْنِ خَـمْسِينَ إنْسَانًا بِإنْسَانِ

ويشبه الشاعر نفسه بالسماك ، والسماكان كوكبان نيران يقال لأحدهما السماك الرامح لأن أمامه كوكبا صغيرا ، والآخر السماك الأعزل لأن ليس أمامه شيء :

طلعتُ طلوعَ السَّمَا في كُل تلعةٍ  وإشراقَ السماكِ عَلَى الخصْمِ [1]

أما القمر فله صحبة طويلة مع الناس ، وللعرب صحبة خاصة ، وللعشاق خصوصية أكثر ، أما الشعراء فلرهافة مشاعرهم وأحاسيسهم فعلاقتهم به وثيقة .

" فالقمر يبدأ هلالا ويمر بأدوار استحالته بدرا ، فهو الذي يضيء للشعراء ظلمات ليل المفازات والبيد ، ويأنسهم ، لهذا نراهم خاطبوه بقصائدهم لأنه صورة المعشوق وهو الأنيس ". [2]

فأبو تمام كثيرا ما كان يطلق أسماء عناصر الطبيعة على شخصياته ، وهاهو يمدح الحسن بن وهب ويسمه ب " قمر الندامى والنديّ " فيقول :

أَمِيلُوا العيسَ تَنفحُ في بُراهَا  إلى قمرِ النَّدَامى والنَدِيِّ

وممدوحه خالد بن يزيد هو " قمر القبائل :

كنتَ الربيعَ أمامَه ووراءَهُ  قمرَ القبائلِ خالدَ بْنَ يَـزيدِ

[1] المرجع السابق ، ص 301 .

[2] داوود سلمان الشويلي ، الطبيعة في شعر أبي تمام ، ص 41 .

ويمدح الشاعرَ بن أبي دؤاد ، فيقول أنه هتك الظلام فكان كالبدر ، وهو " قمر السماء " :[1]

هتكَ الظلامَ أبُو الوليدِ بِـغُرَّةٍ  فَتَحْتْ لنا بابَ الرجاءِ المقْفَلِ

بأتمَّ مِنْ قَمرِ السَّماءِ وإنْ بَدَا  بدرًا وأحْسَنَ فِي العُيُونِ وأجْمَلِ

وعندما يتغزل فإن وجه التي يتغزل بها ، يفوق بهاءً القمرَ :

مَالي أرَى وجْهَكِ المكْنُونَ جَوهَرُهُ  يَا أمْلحَ النَّاسِ قدْ يُزري عَلَى القَمَرِ

كما أنه ذكر الليل في مجالي الطبيعة ، وإذ به يتذكر ليلته مع محبوبته :[2]

لله ليْلتُنَا وكانَتْ لـــــــيْلـةً  ذخَرَتْ لنَا بينَ اللوَى فالعُليَبِ

قالتْ وقَدْ أعلقتُ كفِّي كفَّهَا  حِلاًّ فمَا كُلُّ الحَلالِ بِطيِّــبِ

وعندما يتغزل فإن الليل للعشيقين ستر وخلوة ، وقد اتخذ الحبيب من خد حبيبته مخدةً :

لا شَيءَ أحسَنُ مِنْهُ ليلةَ وصلِنَا  وَقَدِ اتخذْتُ مخدَّةً من خَدِّهِ

وعندما وصف النهار خاطب أبو تمام صاحبيه لينظرا إلى جمال الطبيعة ، فيقول :[3]

يا صاحبيَّ تقصَّيَا نَظرَيْكُمَا  تَرَيَا وُجُوهَ الأرضِ كَيفَ تُصوَّرُ

تَرَيَا نَهَارًا مُشمِسًا قد شابَهُ  زهـرُ الــربَا فــكأنما هُو مُقمِرُ

ويصف شعره بالنهار ، فيما شعر الآخرين بالليل :

أرى الداليتَيْـــنِ عَلَى جَفاءٍ  لديكَ وكلُّ واحِـدةٍ نُضَارُ

إذا ما شعــرُ قـومٍ كان ليلاً  تبلجَتَا كمــا انشق النهــارُ

وإن كانت قصائدهم جدُوبَا  تلونتا كما ازدوجَ البَهَـارُ [4]

---

[1] المرجع السابق ، ص 540 .

[2] عبد الله التطاوي ، القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، دار غريب ، القاهرة ، د ط ، ص 116 .

[3] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ( العصر العباسي الأول ) ، دار المعارف ، القاهرة ، ط 15 ، ص 282.

[4] أبو تمام ، الديوان ، ص 316 .

كما أن أبا تمام قد وصف الربيع ، ونجد أنَّ أهمية هذا الفصل ولطافة جوه ، وعبق روائح الزهور فيه ، قد أسرت الشاعر قبل الإنسان العادي ، فتغنى به وبما تجلى منه من ظواهر ، فراحت أحاسيسه ووجدانه يسيحان في خيالات ذات امتدادات واسعة ، قال واصفا الربيع : [1]

إنَّ الربـــيعَ أثـــرُ الزمَـــانِ لـو كـان ذا روحٍ وذا جُـثـمَـانِ

مُصَوَّرًا في صُـورةِ الإنْسَانِ لَكَانَ بَـــسَّاما مـنَ الـفتيـانِ

بُوركتَ مِنْ وقتٍ ومِنْ أوانٍ فالأرضُ نَشْوَى مِنْ ثَرَى نَشْوَانِ

تَخْتَالُ من مُفـوَّفِ الألوانِ فـي زهَـرٍ كـالحـدَقِ الـــروانِـي

مـــنْ فاقعٍ وناصعٍ وقَـــانِ عـجبـتُ مِنْ ذِي فكرةٍ يَقْظانِ

رأى جـفونَ زاهــرِ الألوانِ فشَـكَّ أنَّ كـلَّ شـيءٍ فَـــانِ

أما شعر المعاتبات فالربيع فيها شيء مرجو ومتأمل ، بعيد المنال ، لأن الذي يعاتبه قد قصر معه في عطاياه فقال :[2]

قدْ كانَ أصغَرَ هِمَّتي مُستغرِقًا عظَمَ الرَّبِيع فَصِرْتُ أرضًا صَيِّفا

هبَّتْ ريـاحُك لي جنوبًا سَهْوَةً حَتَّى إذَا أورقتَ عادَتْ حَرْجَـفَا

وكان يرى في عهد الحسن بن وهب ، ربيعا دائما فيقول :

أيـامنا فـي ظـلالـه أبـدا فصـلُ الربيعِ ودهـرُنا عرسُ

ولعل من الطريف أنه وقف بعض مقدماته للمديح على وصف الطبيعة ، وهو لا يُبَارَى في تصوير مشاعر الطير وأحاسيسه ، "ومن خير ما يمثل ذلك عند تصويره لقمرية وقمري وهما يرشفان رحيق الهوى بينما وهو يتعمقه الحزن ، وكأنما ترثى له السماء فتستهل بروقها ورعودها ، والطبيعة من

[1] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 289 .

[2] داوود سلمان الشويلي ، الطبيعة في شعر أبي تمام ، ص 75 ، نقلا عن أخبار أبي تمام للصولي ، ج3 ص 520.

حوله مكتسية بثياب الربيع المشرقة والطواويس تومض بألوانها الزاهية وأذنابها المزركشة ، وكأنها خدم هذا العرس الرائع من أعراس الربيع" [1] . يقول :[2]

غنَّى فشاقكَ طـائـــرٌ غـرِّدُ | لـمَّا تـرنَّـمَ والـغـصـونُ تَميدُ
ساقٌ على ساقٍ دعَا قمريــةً | فدعت تقاسمُهُ الهوى وتَصِيـــدُ
إلفان في ظل الغصون تألفـا | والتفَّ بينهما هوًى معقُـــودُ
يتطعمان بريقَ هذا ، هــذه | مجْعًا وذاك بريقُ تلكَ مُعـــيدُ
يـــا طائرانِ تمتعا هُنِّيـــــتُمَا | وعِـــما الصباحَ فإنّني مجهودُ
أبكي وقد تلتِ البروق مضيئةً | مِن كـل أقطارِ السماء رعودُ
واهتز ريـــعانُ الشباب فأشرقتْ | لتهلل الشجرَ القُرى والبيدُ
ومضتْ طواويسُ العراق فأشرقتْ | أذنـابُ مشرقـةٍ وهـنَّ حُفودُ
يَرفُلنَ أمثالَ العَذارَى طوَّفـــــاً | حَولَ الدوارِ وقَدْ تَدَانَى العِيدُ

فهذه قطعة زاخرة بوصف المشاعر والأحاسيس ، مشاعر أبي تمام المحزون ، وأحاسيس الطير المبهجة بالحب والطواويس المبتهجة بالربيع .

" ونراه في إحدى مدائحه للمعتصم يصور الربيع واصلا بينه وبين عصر المعتصم وكأنه يرى عصره ربيع العصور العباسية ، وقد مضى يحتكم في هذا الوصف للربيع وفتنته بأنه مجمع الضدين : الصيف والشتاء ، فالصيف يتراءى في طقسه والشتاء يتراءى في زهره " [3] ، بل إن المطر في الشتاء ليحمل بين أطوائه الصحو المشرق الجميل ، كما يحمل الصحوُ بترطيبه للجو نضرةَ المطر ، فيقول :[4]

مطرٌ يَذُوبُ الصَّحْوَ مِنْهُ وبَعْدَهُ | صحوٌ يَكادُ مِنَ النَّضَارَةِ يُمْطِرُ

---

[1] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ( العصر العباسي الأول ) ،ص 281 .

[2] أبو تمام ، الديوان ، ص 148 .

[3] شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ( العصر العباسي الأول ) ، ص 282 .

[4] أبو تمام ، الديوان ، ص 333 .

ويتسع به الخيال فإذا " الندى الذي تترقرق حباته على الأوراق والغصون كأنه طيب سقط من غدائر السحاب على لمم الثرى ولحاه " [1]، يقول :

وندًى إذَا ادَّهَنَتْ بِهِ لِمَمَ الثَّرى    خِلْتَ السَّحَابَ أتَاهُ وهُوَ مُغَدر

والملاحظ أن أبا تمام ليس مجرد وصاف للطبيعة ومحاك لها ، ذلك لأنه يجعلها جزءا من لوحة كبيرة ، ويخلق منها مثلما تخلق ، فهو – على كلٍّ – في حالة وصف الطبيعة وحالة خلقها ، "يقدم لنا شعرا تشكيليا يكاد يتقرى ، ويساعده على ذلك حسه المرهف بالألوان والأضواء والخطوط ، فهو لا يقدم مثلا الألوان المفردة كالأبيض والأسود ، وإنما يقدم كذلك الألوان المركبة والمتدرجة ، وهو في الوقت نفسه يوائم بين اللون والشكل" [2]، ولنتأمل قوله :

مِن كلِّ زاهرةٍ ترَقرقُ بالنَّـدَى    فَكـأنَّها عَيْـنٌ عليـهِ تَـــحَدَّرُ

حتَّى غدت وهداتها ونجادهَا    فـئـتيـن فـي خلـع الـربيع تَبختَرُ

مصفَّـرةً محـمرةً ... فكأنها    عَـصَبٌ تيَمَّنَ في الوغا وتمضَّرُ

مِنْ فَاقِعٍ غَضَّ النَباتِ كأنه    درٌّ يَشقَّقُ قَبْلُ ثـمَّ يُـزعْـفِـــرُ

أو ساطعٍ في حُـمرةٍ فكأنما    يَـدْنُو إليـهِ مـن الهـواءِ مُعْصْفرُ

صنعَ الذي لولَا بدائعُ لطفِهِ    ما عـادَ أصفرَ بعدَ إذْ هُوَ أخْضرُ

[1] المرجع السابق ، ص 283 .

[2] العربي حسن درويش ، الشعراء المحدثون في العصر العباسي ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، 1989 ، ص 160.

إضافة إلى أبي تمام نجد زمرة من الشعراء أولوا للطبيعة اهتماما في شعرهم كالبحتري وهو " المداح المجيد والوصاف المبدع ، عاش ينزع إلى الجمال ، يقتنص روائع الصور وبدائع المشاهد ، يرقبها حينا بثاقب بصره ، وطورا بنافذ بصيرته فيترجمها أحاسيسَ ومشاعر واهتزازت روحية. " [1] وقد ظهرت عبقريته أشد ما ظهرت في فن الوصف حتى عده النقاد " أحد أعظم الوصافين العرب إن لم يكن أعظمهم على الإطلاق " [2]

وقد شغف البحتري بالطبيعة وتأملها وتتبع مظاهر جمالها ، وضمن البحتري هذا الوصف لوحات عديدة جمع فيها ألوانا مختلفة من مباهج الطبيعة .

وقد كانت أوصافه في الطبيعة على الإجمال قليلة الحظ من الابتكار ، تقليدية في أغلبها ، غير " أن البحتري تمكن من ترقية هذا التقليد إلى درجة رفيعة من التفوق والشخصية والأصالة . وقد ابتدع طريقة خاصة تقوم باختيار التفاصيل الطريفة المحسوسة لتأليف لوحات متناسقة تروع بإتلافها ، وتؤثر بما يبثه فيها من حياة وحركة ، وبما يجعل فيها من موسيقى رائعة ."[3]

ونراه يتخير ألفاظ بيته بعناية ودقة ، ويبدو أنه استمد مفرداته من واقع بيئته المتحضرة ، فشبه الندى وقد تجمع بخفة على أوراق الزهر بالدموع على خدود البكارى وهناك المطر الغزيز الذي يصاحبه الرعد :[4]

| | |
|---|---|
| أمَا تَــرَى الـعَارضَ المُنْــهلّ دَانِيهِ | قَدْ طبّـق الأرض وانْحلَّتْ عَزَاليهِ |
| فالـريحُ تُزجِيـــهِ تَـــاراتٍ وتَحدُرُهُ | والـــرعْدُ يُنجِيهُ طورًا أو يُناجِيهِ |
| يَبكِي فَيُضْحَكُ وجْهَ الأرضِ عن زَهَرٍ | كَالوَشْيِ بَلْ لا تَرَى وَشْيًا يُدَانِيهِ |
| مَازَاَلَ يَسْكُبُ مَسْحًا مُسْــبلاً غَدَقًا | لا يَستفيقُ ولِي عَيْنٌ تُبَارِيـــهِ |

[1] مأمون الجنان ، البحتري " دراسة نقدية حول فنونه الشعرية " ص 171 – 172 .
[2] صالح اليظي ، البحتري بين نقاد عصره ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1982 ، ص 78 .
[3] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 504 .
[4] البحتري ، الديوان ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ، 1963 ، ص

كما أن وصف الغيث رافق قصائد البحتري ، حتى غدا أحد مفرداتها ، وقد كان وصف الغيث باعثا للحياة في القصيدة ، "والبحتري لا ينقل فحسب ، بل ينفعل في توصيل التجربة إلى المتلقي وقد يبالغ في تحريك الوصف عن طريق تشخيص الغيث فيجعله إنسانا ملتفا بإزاره ، وفي هذا يقول :"[1]

غيثٌ أذابَ البرقُ شحمةَ مُـزنِـهِ فالريحُ تنظُمُ فيهِ حَبَّ الـجوْهَـرِ

وكَـأنَّمَا طـارتْ بِـهِ ريـحَ الصِّبَا مِنْ بَعْدِمَا انغمسَتْ به في العنبرِ

ويُضِيءُ تَحْسَبُ أنَّ مَاءَ غَمَامِهِ قَـمَـرٌ تـقطع في إناءٍ أخـــضَرِ

منْ ذَا رَأى غيـثًا تَـأزَّرَ بَرقُـهُ فِـي عَـارضٍ عُـرْيَانَ لـمْ يَتَـأزَّرِ

وأفرد كذلك البحتري مقطوعات في وصف السحاب ، ولعل داليته التي وصف فيها سحابة ممطرة فوق بركة من الشواهد المناسبة لهذا المقام ، وفي ذلك يقول :[2]

ذاتُ ارتـجـازٍ بِحَنِـينِ الرعـدِ مجرورَةُ الذيْلِ صَدُوقِ الوَعْدِ

مَسْفُـوحَةَ الـدَّمْعِ لغيرِ وَجْدِ ولـهَا نَـسِيـمٌ كـنَسيـمِ الوَرْدِ

ورتَّـــةٌ مـــثلَ زئـيـرِ الأُسْـدِ ولـمحُ بـرقٍ كَسيُوفِ الهِندِ

جاءتْ بِهِ ريحُ الصَّبَا من نَجْدِ فانتشَرَتْ مثلَ انتشارِ الـعَقْـدِ

كما أفرد البحتري مقطوعات في وصف البرك التي تعد من مظاهر الحضارة الجديدة في البيئة العباسية ، ولعل هائيته في مدح الخليفة المتوكل هي عروس قصائده في وصف المائيات ، "وكيف استطاع الشاعر أن يبلور إعجابه الفائق ليس بالبركة فحسب وإنما بكل ما يتصل بها من مفردات الطبيعة النابضة فينهل من النسيم والسماء والنجوم والشمس والسحاب والأمطار والبساتين"[3] فيقول مادحا المتوكل ومتأنقا في وصف البركة : [4]

---

[1] البحتري ، الديوان ، ص 950 .

[2] المصدر نفسه ، ص 568 .

[3] رائدة زهدي رشيد حسن ، الماء في شعر البحتري وابن زيدون " دراسة موازنة " ، جامعة النجاح الوطنية . ص 105 .

[4] أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 216 .

يَا مَنْ رَأى البركةَ الحَسْـــنَاءَ رُؤيَتَهَا  والآنـــسَاتِ إذَا لاحَتْ مَـغَانِـيهَا

بحَسبِـــهَا أنها مِنْ فضـــلِ رُتبتِـــهَا  تُـــعدُّ واحدةً والبـــــحرُ ثانِيهَا

ما بَـــالُ دجْلـةَ كالغَيْرَى تُنَافِسُهَـا  فِي الحُسْنِ طورًا وأطـــوَارًا تُبَاهِيهَا

أمَـــا رأتْ كَالئَ الإسْلاَمَ يَكْلؤُهَـــا  مِنْ أنْ تُعَابَ وبانِي المجْدِ بَانِيهَـا

كأنَّ جـنَّ سليمـانَ الـذِين وَلُـــوا  إبـدَاعَهَا فأدقُّـوا في مَعَـــانِيهَا

فلـوْ تـمـرُّ بـها بلقيسُ عَنْ عَـــرضٍ  قالت:هيَ الصرحُ تمثيلاً وتشبـيهَا

تَنْحَطُّ فيها وفُودُ الماءَ معجـلـــــــةً  كالخيل خارجةً من حبلِ مُجريهَـا

كأتَّما الـــفضَّةُ البيضاءُ سائلـــــةٌ  مـــنَ السبائـكِ تَجْري في مَجَاريهَا

إذا علتهَا الصَّبَا أبـــــدَتْ لهَا حُبُـكًا  مثلَ الجواثـينِ مصـقولاً حَواشيهَا

فـرونـقُ الـشمـسِ أحـيانَا يُضاحَكهَا  وريِّـــقُ الـغَيثِ أحيانًا يُباكيهَا

كما أنه ولع بوصف الربيع في أبيات مدح فيها الهيثم الغنوي مقرونا بوصف شامل للربيع تختبئ فيه فكرة المتعة وراء جمال الطبيعة في هذا الفصل كما أنها تختفي وراء مظاهر الجمال الإنساني ، "وهي الفكرة الرئيسة التي تفسر هذه المماثلة وهذا التجاوب الموجود بين الجمالين ، إذ يجد الشاعر فيهما إحساسات وانطباعات متماثلة ، وهكذا تكون الانطباعة الحاصلة من منظر الربيع المزهر المشرق مشاكلة للانطباعة الحاصلة من رؤية شاب جميل يفيض حيوية "[1]، وعلى هذه المماثلة يبني الشاعر تشخيصه الحي فيصير الربيع أو النيروز ذلك الأمير الذي يوقظ الحسناء النائمة في الغابة كما وردت قصتها عند شارل بيرو[2] ، "وتغدو الأزهار قبل انفتاحها حساناً نائمات يستيقظن في يوم عرسهن فيكون العطر المنتشر منها حديث غرام كن يبالغن في كتمانه وتضحي الأشجار في لباس

[1] موهوب مصطفاي ، الرمزية عند البحتري ، صدر عن وزارة الثقافة ، الطبعة الأولى ، 2007 ، ص 293 .

[2] كاتب فرنسي اشتهر بأقاصيصه وتفضيله المحدثين على القدماء في الأدب ، ولد وتوفي بباريس ( 1628 – 1703 م ) .

جديد كالرجال المدعوين إلى العرس ويرق النسيم حتى تشيع في جوه نفحات من أرواح الأحبة [1] ، وفي ذلك يقول :"[2]

أتَاكَ الربيعُ الطلقُ يَختالُ ضاحِكًا مِنَ الحُسنِ حَتَّى كادَ أنْ يتْكلمَـــا

وقدْ نبهَ النيروزَ في غلسِ الدُّجَـى أوائـلَ وردٍ كُـنَّ بـــالأمسِ نُوَّمَا

يُفـتِّقُهَا بَـرْدُ الـــنَّدَى فكأنَّـهُ يَبُـــثُّ حديثًا كانَ أمْسُ مُكتَّمَا

ومِنْ شَجَرٍ ردَّ الربيعُ لـــبَاسَـــهُ علـــيهِ كمَا نَشرت وشِيًّا مُنمنَمَا

أحلَّ فأبْدَى لـلعُيُونَ بَشَاشَـــةً وكـــانَ قذًى للعَينِ إذْ كانَ مُحرمَا

ورقَّ نَسيمُ الرِّيحِ حتَّى حَسبتَـهُ يَجـيءُ بأنـفاسِ الأحبِّـــةِ نُعَّمَا

فما يحبِسُ الرَّاحَ التي أنْتَ خِلهَا ومَا يمنَـــعُ الأوتَارَ أنْ تَـتَـــرَنَّمَـــا

ومَا زلتَ شمسًا للنَّدَامَى إذا انْتَشَوا ورَاحُـــوا بُدُورًا يستـحـثُون أنْجُمَا

[1] المرجع السابق ، ص 294 .

[2] البحتري ، الديوان ، ص 214 .

أما عبد الله بن المعتز فقد وصف الطبيعة "هاربا إليها بخياله وفكره من واقع مؤلم ، وحياة لم يكن يرضاها" [1]، فكان " يحب الطبيعة ويفتن بها لا ريب لكنه حين يتعلق بها تستهويه الصور قبل كل شيء فيعنى برسم الشكل الخلاب وشعره آيات على إرهاف حاسة البصر وحسن استقباله للألوان والأشكال ودقة إخراجه للصور و الأمثال وهو في إخراجه للصورة يحتال ويتألق ويتأنق ، ويكتفي بالإشارة عن الإطناب ويستخدم براعات عجيبة ". [2]

وتعد الطبيعة عند ابن المعتز ذلك المتحف الواسع الذي تنقل الشاعر في أرجائه مأخوذا بجمال صوره وأشكاله من كواكب ورياض ونبات على اختلاف أصنافه ، وحيوانات أليفة آبدة ، وقصور وآنية مزخرفة بشتى الرسوم الفنية.

وعلى الإجمال فقد وصف ابن المعتز كل ما التقطته من الصور والمشاهد عينه المتيقظة لأدق الألوان ولجميع أشكال الجمال .[3]

ولقد عني ابن المعتز بالطبيعة في كل صورها على ما ألمحنا وهو يفتن بالرياض بشكل عام فيقول:

أمَا ترى الأرضَ قد أعطتكَ زهرتَهَا  مخضرةً واكتسى بالنور راعِيهَا

فللسمـــاءِ بُـكاءٌ من حدائقـــهَا  وللرياضِ ابتسامٌ من نواحِيهَا

إنها صورة "جميلة بل لوحة جذابة للأرض كستها خضرة الربيع ووشاها الزهر والنوار ، ولقد عمد الشاعر إلى الصناعة البديعية حين طابق بين بكاء السماء في الحدائق وابتسام الزهر في الرياض."[4] وأجمل ما تكون الرياض بهاء وابتساما في فصل الربيع ،وأول الربيع آذار فيه تكتسي الأرض بالألوان الزاهية من أخضر وأبيض وأحمر وأصفر وهي نفسها ألوان الغصون والأزهار من آس ونســـــرين وورود وبهار .

[1] ليلى سالم محمد مندور ، الوصف في شعر ابن المعتز ، رسالة ماجستير ،جامعة أم القرى ، ص 14 .

[2] سيد نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، دار المعارف ، ط 2 ، 1878 ، ص 186 .

[3] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 553.

[4] مصطفى الشكعة ،الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 6 ، 1986 ، ص 769.

فيرى ابن المعتز ذلك فيجري شعرا رقيقا رخيا على لسانه .[1]

حَبَّـذَا آذارُ شـهـرًا        فيهِ للنورِ انتشَارُ

يَـنْقُصُ الليلُ إذَا جَا        ء ويمتَدُّ النَّهَـــارُ

وعَلَى الأرضِ اخْضِرَارُ        واصفرارٌ واحمرارُ

نقْــشُــهُ آسٌ ونَسـري        نٌ وورودٌ وبهارُ

ومن أرق ما قيل في الطبيعة على أول عهد غرام الشعراء بوصف الروضيات ، قول ابن المعتز :[2]

وروضةٍ باتَ طلُّ الغيثِ يَنْسُجُهَا        حتَّى إذَا نَجَّمَتْ أضحَى يُدبِّجُهَا

يَبْكِي عَليــهَا بُكاءَ الإلفِ فارقَهُ        إلفٌ فيُضحِكُهَا طورًا ويَبْهَجُهَا

إذا تَـــــنَفَّسَ فيهَا وردُ نرجِسهَا        نَاغَى جني خُزَامَاهَا بِنَفْسَجُهَا

وكما وصف شعراء قبل ابن المعتز الأزهار ولكنهم لم يهيموا بها هيامه ولم يفرغوا لها ، ومن ثم فإنه لكثرة ما وصف الأزهار يمكن أن نطلق عليه رأس مدرسة الزهريات في الشعر العربي .

أحب ابن المعتز زهرة النرجس فرسم لها صورة جميلة أو أقل لوحة ناطقة معبرة عبث القطر بها في قوله .[3]

نَرجِسةٌ لا تَزالُ مُحدِّقَــةً        لم تكتحلْ قطُّ لذةَ الغَمَضِ

أمَالهَا القَطرُ فهيَ باهتةٌ        تنظرُ فعلَ السَمَاءِ بالأرضِ

ويرق ابن المعتز ويبدع وهو يرسم صورة أخرى للنرجس مع تشبيهين أولهما يرتبط بالغنى والترف

[1] المرجع السابق ، ص 770.

[2] عبد الله بن المعتز ، الديوان ، دار صادر ، بيروت ، الطبعة الثالثة ، 1961 م ، ص 473 .

[3] المرجع نفسه ، ص 92.

وثانيهما يتصل بالعشق والصبابة بأسباب .[1]

رُضْ يا غلامُ على الروضِ النضير لنَا		كـأسَ المـدام وداوِمْ رنّـــَة الزيرِ
أما تـَـــرى النرجس الميَّاسَ  يلحظُنَا		ألحاظَ ذي فرحٍ بالعتْب مسرُورِ
كأن أحداقَهُ في حُسْنِ صورتِهـــــــَا		مداهنُ التبرِ في أوراقِ كافُـــورِ
كأن طـــلَّ الندى فيه لمُبْصِـــــــرِهِ		دمعٌ ترقرقَ من أجفان مَهْجورِ

وإذا انتقل ابن المعتز من الروضيات برياحينها وأزهارها وأثمارها إلى ميدان آخر من وصف الطبيعة ، فإنه يجلي وينبغ ويفتن في ساحة المائيات من وصف المزن والبرك والغدران ، "وهو في هذا النطاق الجديد يعزف على وتر آخر من أوتار الطبيعة قد يختلف مع سابقه من حيث الشكل لكنه يشابهه أناقة وافتتانا ."[2]

إن ابن المعتز يصف مولد الثلج لأول مرة – على علمنا – في الشعر العربي في مجال وصفه لسحابة حجبت شمس النهار وأغرقت الأرض بهطول المطر ودفعت ابن المعتز إلى مجلس شراب وسكر ، فيقول :[3]

مَنْ لامَنِي اليَوْمَ في سُكرٍ فَلَا عَذَرَا		هَاتِ الكبيرَ وغيرِي فاسقِ ما صَغُرا
غدت منكرةً للمُزنِ فاحتَجَبَــتْ		شـمسُ النَّهار ولم  نَعرفْ لهَــا خَبَرَا
حتَّى إذا ثُقلتْ حِمْلاً ومَا بَقِيَـــتْ		أرضٌ ببـغدادَ إلا تَرْتـجِـــي المطرا
واغرورقت لانسكابِ الماءِ مُقلتُهَا		جاءت بثلجٍ كـورد أبيـــضٍ نُشِرَا

وقال أيضا مجيدا في وصف المزن والغيث :[4]

وســــــــــاريةٍ لا تمَـلُّ البُـكَا		جَـــــرَى دمعُهَا في خُدُودَ الثَرَى

[1] المرجع السابق ، ص 94 .
[2] مصطفى الشكعة ، الشعر والشعراء في العصر العباسي ، ص 776 .
[3] المرجع نفسه ، ص 252 .
[4] محمد خفاجي ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، دار الوفاء ، الاسكندرية ، دط، 2003 ، ص 87 .

سَرتْ تقـدَحُ الصُّبحَ في ليلهَا　　بـــــبــرقٍ كهــنديةٍ تُنْتَــضَى

فلمَّا دَنتْ جَلجَلتْ في السَّمَا　　ءِ رعْــدًا أجَـشَّ كـــجَرِّ الرَّحَى

ضمانٌ عَليهَا ارتداءَ الـــيفَاعِ　　بأنْــــــوارِهَا واعتـــجَارَ الرُّبَا

فَمَا زالَ مَدْمَعُهَا باكـــــيًا　　عَلَى التُّربِ حتَّى اكتْسَى ما اكتَسَى

فأضْحَتْ سواءً وُجُوهُ البِــلادِ　　وَجَــنَّ النباتُ بِهَا والتَـــــــقَى

كما أن ابن المعتز قد وصف بعض الظواهر كوصف طبيعة الكون عند انسلاخ النهار عن الليل قائلا :[1]

قَدْ تولَّت زهر النجوم وقد بَشَّ　　رَ بِالـصُبحِ طائرُ الأسحارِ

مَا تَرى نِعْمَةَ السماءَ عَلى الأر　　ضِ وشُكر الرياضِ للأزْهَارِ

وغِنَــــــاءُ الطيورُ كلَّ صباحٍ　　وانفتَاقَ الأشْـجَارِ بالأنْوارِ

وكأنَّ السَحَابَ يَجْلُو عَـروسًا　　وكأنمَا مِنْ قُطـــره في نثَارِ

وكما أنه وصف الربيع وعلى الرغم مما نجد من تشخيص في بعض أوصافه نراه يقصر عن الوصول إلى ما وصل إليه البحتري وأبو تمام في وصف الربيع ، حيث يقول :[2]

وانظُرْ إلى دُنْـيَا ربيـــعٍ أقبلـــتْ　　مِثـــلَ البَغِـــــيِّ تَبرجَتْ لِزُنَاةِ

جَاءتْـــكَ زائــرَةً كـعـــــامٍ أوَّلٍ　　وتلــــــبَّسَتْ فَتَعطرَتْ بِنبَاتِ

وإذَا تـعرَّى الصبحُ مِنْ كـــافُورِهِ　　نطقت صنوف طيورها بلـغَاتِ

والورْدُ يَضْحَكُ مِنْ نواظرِ نَرجِسٍ　　فُديَتْ وآذَنَ حُبَّهَا بَمَـــــــمَاتِ

---

[1] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 290 .

[2] العربي حسن درويش ، الشعراء المحدثون في العصر العباسي ، ص 314 .

وخلاصة ما نجده في وصف ابن المعتز ، " هو الإكثار من وصف الرياض والوقوف أمام مشاهد الطبيعة ، وإن كان هذا الوصف يقف عند مظاهر الأشياء التي يصفها ، ولكن مع العناية بجزئيات الصورة وعلى وجه الخصوص في التشبيهات " [1] ، كذا فإن ابن المعتز " قد أتى بما يدهش حقا في تأنق صوره وبراعتها ، وصوره تروع بإحكامها وطرافتها ، وبعد إيحائها ، كما تروع باقتضابها الذي تغني فيه الإشارة الخاطفة الساحرة عن الإطناب الممل ، وبتدفق العاطفة المتقدة بين ألوانهـــا وتفاصيلها باثة فيها حرارة وحركة ونورا ونضارة " . [2]

[1] المرجع السابق ، ص 315 .

[2] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 554 .

## ج) في الشعر الأندلسي :

تعد المحاسن التي حبا الله بها بلاد الأندلس هي في الواقع المرجع أو المصدر الأول الذي استلهمه شعراء الأندلس واستمدوا منه الفيض الزاخر من أغاني الطبيعة التي نظموها تمجيدا لجمال طبيعة وطنهم، وكذا فإننا نجد " هذه البقعة الكريمة من الأرض والغنية بشتى المناظر والمشاهد التي تأسر الطرف، وتستهوي الأفئدة وتستثير العواطف والمشاعر، وتستصبي الخيال، كان لها التأثير القوي في عقول أبنائها وأخلاقهم وأمزجتهم ورهافة حسهم، وصفاء أخيلتهم " [1]

و الأندلسيون قوم " يغلب عليهم الأدب و يأسرهم الشعر فتفننوا في قوله و إنشائه و أحسنوا في الاستماع إليه وإنشاده" [2] ، " فقد فاقوا المشارقة في شعر الطبيعة كمًّا وكيفا وتوسعوا ونوعوا في موضوعاته توسعا و تنوعا فاق كل اعتبار "[3] ، كما أنهم كانوا فيه أكثر براعة وابتكارا وتجديدا ودقة تصوير، فوسعوا بذلك دائرة الأدب وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه ومعانيه ونوعوا في قوافيه، وتفننوا في خياله ودبجوه تدبيج الزهر، وسلسلوه سلسلة النهر، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة ، حتى ضاقت أوزان الشعر عما تقتضيه رقة الحضارة ورقي الغناء .

فوصف الشعراء الأندلسيون "الحدائق والبساتين رياضا وأزاهيرا، وورودا ونوارا وحمائم وأطيارا، وجداول وأنهارا، وخلجانا وغدرانا، وبركا وسواقيَ، وخضرا وأثمارا وزوارق ومراكب، وثلوجا وأمطارًا، وكل ما يخطر على النفس من جميل يتصل بالطبيعة أو طريف يرتبط بها بآصرة نسب أو وشيجة علاقة وصفوه وصفا بديعا، وصوروه تصويرا فاتنا ، مختلف الألوان منمنم الأصباغ، فيه الفاقع الزاهي ومنه الداكن الوقور."[4]

وهناك مرجع آخر زاد من ازدهار شعر الطبيعة في الأندلس،" ألا وهو حياة اللهو والاستمتاع التي كان يمارسها الشعراء، ممثلة في مجالس اللهو والأنس والطرب والشراب كانت

---

[1] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 291 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 12 ، 2008 ، ص 341 .

[3] المرجع نفسه ، ص 293 .

[4] المرجع نفسه ، ص 341 .

الطبيعة مسرحها، فهذه المجالس أوحت إليهم بشعر غزير عبروا فيه عن حبهم ولهوهم وأشواقهم، ولم تكن الطبيعة غائبة عنه بل كانت عنصرا أساسيا فيه."[1]

وإذا كان لنا أن نعين سمة بعينها لشعر الطبيعة الأندلسي الذي يعد من الموضوعات الكبرى التي سيطرت على الشعر في هذه الفترة، فهو متميز بأشكاله مستقل بهويته إلى حد بعيد، "هو لوحات رسمتها الحروف، وزخارف دبجتها أخيلة الشعراء في نطاق العبارة البسيطة السهلة واللفظة الأنيقة المنتقاة والجملة الموسيقية الأخاذة مع عمد مطلق إلى الزينات اللفظية والمعنوية مما تضمنته موضوعات البيان والبديع بحيث يمكن أن تكون هذه الظاهرة قاعدة عامة لشعر الطبيعة الأندلسي، وهذا أمر بدهي فشعر الطبيعة رسم وزينة ، وزينة الرسم ألوانه وظلاله ، وزينة القول استعاراته ومحسناته وإجراء الحركة فيه مع انتقاء اللفظة ذات الجرس في نطاق الجملة ذات الرنين ."[2]

ومن خلال الاستقراء لاتجاهات الشعراء الأندلسيين في شعر الطبيعة نجدها سلكت اتجاهين اثنين أولهما " التغني بجمال طبيعة بلادهم ويقصد به تغني شعراء الأندلس بجمال الطبيعة في مدنهم، الأمر الذي يدل على مدى تعلقهم واعتزازهم بها ".[3]

ومنهم من امتد حبه فشمل الأندلس كلها، فغناها ومجدها ومنهم من وقف حبه وتمجيده على طبيعة مدينته، التي شب ودرج على أرضها وعاش بين أكنافها.

ومن أمثلة النوع الأول قول ابن سفر المريني، الذي تغنى بجمال الأندلس:[4]

فِي أرْضِ أنْدَلُـــــــسٍ تُلْــتَذُّ نَعْمَاءُ ولَا يُـــفَارِقُ فِـيهَـا القَلْبَ سَرَّاءُ

ولَــيْسَ فِي غَيْرِهَـــــا بِالعَيْشِ مُنْتَفَعٌ ولا تَــقُــومُ بِحَقِّ الأُنْسِ صَهْبَاءُ

[1] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 292 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 342 .

[3] المرجع السابق ، ص 295 .

[4] ، أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، دط ، ج 1 ، ص 194 .

أنهـــــــــارها فضة والمسك تـربتــها      والخَزُ روضَـــتُهَا والــدُرُّ حَصْبَاءُ

وللهواء بهـــا لطف يـــــــــرق به      من لا يرقُ، وتبـــــدو منه أهواءُ

ليس النسيم الذي يهفو بها سحـــرا      ولانـتشار لآلي الـطّل حصبــاءُ

وإنـــــــــما أرج الند استثار بهــــا      فـي ماء ورد فطابت منه أرجــاءُ

وأيــن يـبـلغ مـنـــها مـا أصـنـفــه      وكيف يحوي الذي حازته إحصاءُ

قد ميزت من جهات الأرض حين بدت      فـريدة وتــولى مَـيْزهــا المـــاءُ

فيها خلعت عذاري مـــــا بها عــوض      فـهي الرياض وكل الأرض صحراءُ

ومن الشعر الذي تغنى فيه الشعراء بجمال مدنهم نجد فيضا غزيرا من الشعر، منه على سبيل المثال قول ابن برد الأصغر في وصف رصافة قرطبة التي بناها عبد الرحمان الداخل: [1]

سقى جوفَ الرصافةِ مستهـلٌ      تـــــؤلفُ شملَهُ أيْدِي الرياحِ

محلٌ مَـا مشيتُ إلـــــــيه إلا      مَـشى فيَّ ابتهاجِي وانشراحِي

كـــــــــأن ترنُم الأطيار فيـه      عذارى قد شَربنَ سُلافَ راحِ

كـأن الجدول المنساب نصلٌ      صـــقيلُ المتنِ هــزَّ إلى لقاحِ

كأنَّ ريـــاضه أبرادُ وشـــيٍ      تعطفَ فوقَ أعطـافٍ مِلاحِ

ومنه كذلك قول أبي الحسن بن نزار في مدينة وادي آش، أو وادي الأشات تلك التي أحدقت بها البساتين والأنهار، وخص الله أهلها بالأدب وحب الشعر: [2]

وادي الأشات يهيجُ وجدي كلمَا      أذكرتُ ما أفضتْ بكَ النعماءُ

---

[1] ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق جامعة القاهرة ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ج 1 ، ص 49 .

[2] المرجع السابق ، ص 189 .

لله ظلك والهجيرُ مُسـلَّـــــطٌ        قــــدْ بَرَّدتْ لفحاتِهِ الأنداءُ

والشمسُ ترغَبُ أنْ تَفُوزَ بلحظةٍ        مِنْــــهُ فَتَطرف طرْفها الأفيَاءُ

والنَّهْرُ يَبْسَــــــمُ بالحُبَابِ كأنَّهُ        سِلـــــخٌ نَضَّتْـهُ حـيَّةٌ رقْشاءُ

فِلـــذَاكَ تحذَرها الغُصُون فَمَيْلهَا        أبــدًا عَـلى جنــباتهِ إيــمَـاءُ

والاتجاه الثاني في شعر الطبيعة الأندلسي يتمثل في" وصف مجالي الطبيعة في الأرض والسماء، ولهم في هذا الاتجاه شعر كثير يعتمد أكثر ما يعتمد في التصوير على التشبيه والاستعارة، ويخيل لمن يطلع على شعرهم في هذا الاتجاه أنهم لم يغادروا شيئا مما وقع عليه بصرهم في أرضهم وسمائهم إلا وقفوا أمامه وصوروه في شعرهم تصويرا يريك ظاهره أكثر من باطنه "[1].

و " شاعر الطبيعة حين يعمد إلى وصفها يتمسك بريشة فنان استحضر معه كل ما يحتاج إليه من ألوان بهيجة بحيث يستطيع أن يجعل من أبياته لوحة نضرة تجذب الأنظار وتخطف الأبصار" [2]، فمن مجالي الطبيعة التي شدت الشعراء إليها وتأنقوا في تصويرها الروضيات أو وصف الرياض ، ونجد الشاعر فيها أكثر احتياجا إلى التنويع والتلوين " ففي الطبيعة اخضرار و احمرار واصفرار وفيها أوراقٌ خضرٌ نضيرةٌ وأغصانٌ غضةٌ مياسةٌ، وفيها نور وأزاهير وشذًا وعبير، وفيها حفيف الغصون وتغريد الطيور وفيها مياه صافية فضية بالضحى عسجدية عند الأصيل، إنها الحياة نفسها بوجهها المشرق الندي الذي يجعل منه الصالح تسبيحة حمد وترنيمة رجاء، والذي يجعل منه الطالح ملاعب سكر ومضامير انحراف."[3]

فمن وصف الروضيات قول الوزير أبي جعفر بن سعدون في وصف روض:[4]

وروضٍ كـساه الطلُّ وشيا مجددًا        فأضـــحى مقيما للنفوس ومقعدَا

---

[1] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 292 .

[2] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشروق ، عمان ، ط 3 ، 2011 ، ص 155 .

[3] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 259 .

[4] أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، ص 189 .

إذا صَافحته الريحُ خلتَ غصونَهُ  رواقصَ في خضرٍ من القصب مُيَّدَا

إذا ما انسكابُ الماءِ عاينتَ خلتهُ  وقد كـسَرَّتهُ راحَـــةُ الريحِ مِبْرَدَا

وإنْ سَكنتْ عنهُ حسبتَ صَفَاءَهُ  حُسَـامًـا صَقِيلاً صافيَ المتنِ جُرَّدَا

وغنَّـتْ بهِ وُرقَ الحَـمَائِمِ بَيْنَـنَا  غَـنَّاءَ يُـنسيك الغـريضَ ومعـبدَا

وأما أبو الصلت أمية بن عبد العزيز الاشبيلي " الذي ولد في منتصف القرن الخامس في إشبيلية وطوف في أنحاء الأندلس وشمال إفريقية ومصر فإن جمال الطبيعة يهزه بشدة تدفع به إلى أن ينبه غلامه ويزجره بلطف حتى يتذوق من سحر الطبيعة كل ما يستطيع من روض بدَا في قلائد من لؤلؤ وأرض ترفل في غلائل سندس، ونور يشرق بحبات الندى وجنات ورد ولواحظ نرجس."[1] وإن الشاعر هنا رسام مجيدٌ وتلك خصلة أصيلة في شاعر الطبيعة، إن أبا الصلت يقول في نطاق ألوانه وصوره واستعاراته وتشبيهاته :

قـمْ يـا غلامُ ودع مخالسة الكرى  لـمُهَـجِّر يـصـفُ الـــنَّوى ومغلِّسِ

أوَمَا رأيـــتَ النُّورَ يُشرِقُ بالنَّدَى  والفجرَ يَنصل من خضابِ الحِنْدِسِ

والتربُ في خـلـل الحديقة مـرتقٍ  والغصنُ من حُللِ الشَبِيـبَةِ مُكتَسِ

والروضُ يبرزُ في قلائـــد لؤلـؤٍ  والأرضُ ترفُلُ في غلائلِ سنـــدسِ

لا تُعدمُ الألحاظُ كيـفَ تصَرَّفتْ  وجناتُ وردٍ أو لواحظُ نرجـــسِ

أو قول ابن القوطية:[2]

وكأنما الروضُ الأنيقُ وقَدْ بَدَتْ  متـلـوناتٍ غـضـــــةً أنْوَارُهُ

بِيضًا وصُفْرًا فَاقِعَاتٍ صَائـــغٌ  لم ينـأَ درهَـمُـهُ ولا ديـــــنارُهُ

[1] ابن الآبار القضاعي ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق ابراهيم الأبياري ، المطبعة الأميرية ، ط5 ، 1957 ، ص 524 .

[2] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة بيروت ، دط ، ص 188 .

سبك الخميلة عسجدًا ووذيلة          لمَّا غدتْ شمسُ الظهيرةِ نــارُهُ

وفي بعض أوصاف الرياض تزدحم الصورة البراقة المنتزعة من طبيعة غنية بالجمال، تكسب جمالها من مخيلة الشاعر فيبرزه لنا في حلة قشيبة، وحياة نابضة ورونق عجيب ولين لا يخلو من ميوعة، وكلام موقع توقيعا موسيقيا لا يخلوا من تصنع كثير. " فإذا ما أراد ابن الزقاق مثلا أن يصف رياضا تلطم شقائقها الرياح والغمام قال"[1] :

ورياضٍ من الشقائقِ أضْحَـتْ          يتَهَادى بهَا نسيمُ الريَـــــاحِ

زرتُهَا والغَمـام يــجـلِـدُ منهَا          زهـراتٍ تَفُوقُ لـونَ الـــرَّاحِ

أما الوزير أبو جعفر أحمد بن طلحة فإن جمال الروض يدفع به إلى شيء آخر غير ذلك الذي أغرى أبا الصلت في الأبيات السابقة، فإن أبا جعفر" يريد أن يجعل من سحر الطبيعة التي أجاد وصفها دافعا إلى المنادمة وحث الكؤوس:" [2]

أدرها فالسماءُ بدتْ عروسَـا          مضــخمةَ الملابسِ بالغَوالي

وخـــد الروض حَـمَّرهُ أصيلٌ          وجفنُ النَّهرُ كُحِّلَ بالظلالِ

وجيدُ الغُصنِ يُشرِقُ مِنْ لآلٍ          تُضيءُ بِهــنَّ أكنَافُ الليَالِي

ونجد أيضا ابن الزقاق يهتز طربا للروابي المطلولة بعد المطر، فليس هناك أجمل من منظر روضة بعد انتهاء انسكاب المطر، غير أن روضة ابن الزقاق توحي إليه بنبرات العشق وتباريح الغرام، يقول الشاعر: [3]

تــأرَّجَ مَطْـلولُ الـرَّوابِـي فَـزرتُـهَا          وأمثال هاتيكِ الرُّبى يقتضي الزَّورَا

وأتْـحفـني مـنـها الـربيـعُ بِـوَردهِ          عَبيرًا بهِ الأنفاسُ إذْ فَـتَـقَ الـنَّـوْرَا

---

[1] ابن الزقاق البلنسي ، الديوان ، تقديم عفيفة محمود إيراني ، دار الثقافة ، بيروت ، ص 188 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 293 .

[3] ابن الزقاق ، الديوان ، ص 178 .

حَكَتْ نَفْحَةً ممن هويتُ ووجنَةً فأنشقُـهَا طـوْرًا وألـثُمُـهَا طورَا

ثم لا يلبث أن يحن إلى رسم صورة وتلوين لوحة لحديقة خضراء طلعت عليه الشمس ساعة الأصيل فتفيض شاعريته بهذين البيتين:

وحدائقٍ خضرِ المِعَاطِفِ ألبِسَــتْ مِنْ حُسْن بهجتها ثيابَ زبرجَدِ

زرَّتْ عَليْهَا الشَّمسُ فضلَ ردائِهَا فَبَدَا زَبرجَدُهُنَّ تحتَ العَسْجَدِ [1]

وهكذا نلاحظ أن مدرسة الروضيات الأندلسية " تمثل إلى حد كبير امتدادا للمدرسة الحلبية مع انفعال أكثر بالبيئة الجديدة وتأثر بالغ بقصة الطبيعة مع الأرض واحتفال أوفر بالصورة واعتناء أجزل باللفظ وأناقة أشمل في انتقاء الألوان التي يخلعها الشاعر في إخلاص وانفعال على عمله الفني الذي يحرص دائما على أن يأتي رفيع القدر إلى الحد الذي ينتزع إعجاب القارئ ويرضي ذوق الناقد."[2]

[1] المرجع نفسه ، ص 140 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 274 .

كما وصف الأندلسيون الأزهار وأكثروا من وصفهم لزهرة معينة أو بعينها كما فعل شعراء الطبيعة في حلب، فوصفوا الورد والنرجس والشقائق والنيلوفر والياسمين والقرنفل واللوز وغيرها مما وقعت عليه عيونهم، وهذا ما سمي في وصف الطبيعة بالزهريات، فهذا ابن حمديس يرثي باقة من الزهر أصابها الذبول ويتحرق حزنا وأسى عليها فيقول هذين البيتين الطريفين:

يا باقةً في يميني بالردى ذبُلتْ  أذاب قلبي عليك الحزنُ والأسَفُ

ألم تكوني لتاجِ الحُسن جوهرةً  لما غرقتِ فهلا صانكِ الصَّدفُ [1]

فالباقة قد غرقت في بركة وهو يشبهها بالجوهرة، ولما كانت الجواهر تؤخذ من أصداف البحار، فقد استغل الشاعر تلك الفكرة الطريفة فوشى بها بيتيه، وقد يكون الشاعر شبه أوراق الزهور بالأصداف وهو أقرب إلى التصور من التخريج الأول.

ولم يقف الأمر بابن حمديس عند رثاء الطاقات وحسب، بل إنه عمد في بعض الأحيان إلى هجائها إذا كانت من زهور الزينة الخالية من الأريج فيقول:[2]

وباقةٍ مستحسنٍ نورُهـا  وقد خلت في الشم من كل طيبِ

كمعشرٍ راقتكَ أثوابهم  وليس في جملتم من أديبِ

أو كما قال المعتمد بن عباد في وصف الياسمين، وهي من الأزهار المحبوبة لدى الأندلسيين:[3]

وياسمينٍ حسنِ المنظر  يفوق في المرأى وفي المخبرِ

كأنه من فوق أغصانَهُ  دراهـمَ في مطرفٍ أخضرِ

أو قول آخر في وصف الياسمين ومبلغ حبه له:[4]

---

[1] ابن حمديس ، ص 156 .

[2] المرجع نفسه ، ص 23 .

[3] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس ، ص 302 .

[4] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، ص 109 .

ولو سقَّيتهُ من ماء وجهي  لما وفَّيتُهُ مَا يستَحقُّ

ولا يخطئ الناظر في هذا الفن كيف أكثر الأندلسيين من وصف الطبيعة في مقدمات قصائدهم مستعيضين به عن الغزل، وكيف أن إعلاءهم من شأن الورد بين الأزهار يلفت النظر حقا، ومن ذلك قول الرمادي:[1]

للآس والسوسان والياسميـــ  ـن والخيري فضلٌ شديدُ

سادتْ به الأرضُ ومن بَينَهَا  وبين فضل الورد بونٌ بعيدُ

هل لك في الآسِ سوَى شمةٍ  تطرحُه مِنْ بعدها في الوَقُود

وإذا كان الشعراء الأندلسيون لم يعقدوا مجالس للزهور مجتمعة ولم يجمعوها في القصيدة بعينها، فإن بعضهم قد عمد إلى وصف زهرتين مجتمعين كما فعل ابن خفاجة في وصف الورد وقد نثر عليه نوار النارنج، وشبه النوار في ابيضاضه بثغر يقبل خدًا أحمر فقال:[2]

وصـدرٍ نـادٍ نظمنَـا  لـهُ الـقوافي عَقدَا

في منزلٍ قد سـحبنَـا  بظلـه العـزَّ بُردَا

قَدْ طنَّب المجدُ بَيْـتًـا  فيه وعرَّسَ وفْـدَا

تَذكُو بهِ الشُّهبُ جُمرَا  وَيَعبقُ الليلُ نَـدًا

وقـد تـأرَّج نـورٌ  غضٌ يخالط وردًا

كـما تـبـسـم ثغرٌ  عـذبٌ يقبل خدًا

[1] المرجع السابق ، ص 109 .

[2] ابن خفاجة ، الديوان ، تحقيق يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، دط ، دت ، ص 19.

ولكثرة الورد في الأندلس فقد أغرم الشعراء بوصفه أكثر من غرامهم ببقية الأزاهير وعقدوا فيه المجالس البهيجة، " وهذا أحد أبناء الملوك بالأندلس يرى وردا كثيرا منثورًا على صفحة خليج تكسرت صفحاته بفعل الرياح فيقول":[1]

نُثِـرَ الـوَرْدُ بـالخـليج وقدْ درَّ  جَ أمْـــوَاهُ هبوبُ الرياحِ

مِثْلَ درعِ الكمِيِّ مزقَهَا الطعـ  ـنُ فسالتْ بها دِماءُ الجراحِ

" ومن أجمل ما قيل في الوردة رقةُ وصفٍ ورفعة ذوقٍ وجميل افتتان قول ابن غالب البلنسي الرصافي الرفاء مهنة وارتزاقا، فقد كان على زعامته لواء الشعر يتكسب من مهنته المتواضعة:" [2]

يَا وردةً جادت بها يــدُ مُتحفِ  فـهَـمَى لـها دمـعِي وهَاجَ تأسُّفِي

حـمـــــراءَ عاطرةَ النسيم كأنـها  مِنْ خدِّ مقتبلِ الشبيبةِ مـتْــرَفِ

عرضتْ تذكرني دمًا مِن صَاحبٍ  شربـتْ بـه الـدنيا سلافةَ قرقَفِ

فنشقتُها شغَفًا وقلتُ لصاحِبِي  هي ما تمجُ الأرضُ من دمِ يُوسُفِ

وما دمنا بسبيل الحديث عن الورد وغرام الأندلسيين به، وما قد قالوا فيه من شعر كثير ورقيق، فلا بأس من ذكر هذه الطرفة الفكهة، فقد مر العالم المحدث أبو القاسم بن ورد بجنة، أي بستان لأحد الأعيان فيه ورد، فوقف بالباب وكتب إليه:

شاعر قد أتاك يبغي أبــاهُ  عندما اشتاق حسنَه وشذاهُ

وَهُوَ بالبابِ مُصْغِيًا لجوابٍ  يَرتَضِيه النَدَى فـمـاذا تَـراهُ

فعندما قرأ صاحب البستان البيتين علم أنه بن ورد فبادر إليه وأقسم في النزول عليه ونثر

[1] أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، ج4 ، ص 384 .

[2] أبو محمد الحجاري وآخرون ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، دط ، دت ، ص 348 .

من الورد ما استطاع بين يديه.[1]

وإذا تعرضنا لزهرة النرجس وجدنا أن الشعراء الأندلسيين لم يكثروا القول فيها، وحتى تلك الأبيات القليلة التي قيلت في وصفها لم نلحظ فيها جديدًا، بل هي في الغالب تقليد، فهذا أبو محمد عبد الحق بن عطية الفقيه القاضي الشاعر يصف بركة نرجس فيقول:[2]

نـرجسٌ باكرتُ منهُ روضةً　　لذَّ قطعُ الدَّهرِ فيهَا وعَذُبْ

حــثَّتِ الريحُ بها خمْرَ حَيًا　　رقصَ النبتُ لها ثـمَّ شَـرِبْ

فَغَـدا يُسفرُ عن وجنَتِـهِ　　نـورُهُ الغَضُّ ويـهتزُّ طربْ

ولسعيد بن محمد بن فرج أخي صاحب الحدائق قصيدة طويلة يرد فيها على ابن الرومي في تفضيله النرجس جاء فيها:[3]

عنِّي إليكَ فمَا القياسُ الفاسـدُ　　إلا الـذي ردَّ العـــيانُ الشـاهدُ

أزعـــمتَ أنَّ الوردَ مِنْ تفْضِيلِهِ　　خَجِلٌ ونـاحِـلـُهُ الفـضيلةَ عائدُ

إن كانَ يسْتحْيِي لفضلِ جَمَــالِهِ　　فَحَيَـاؤُهُ فِيـه جــمـالٌ زائـــدُ

والنرجسُ المصفرُّ أعظمُ ريـبَــةٍ　　مِـنْ أنْ يَحُـولَ عليهِ لونٌ واحدُ

لبسَ البياضَ بصفرةٍ في وجهِهِ　　صفةً كمَا وُصف الحزينُ الفاقدُ

وقد برزت روح المفاضلة والمناظرة بين الأزهار عندما شجع المظفر الشعراء على الإكثار من القول في أنواعها المختلفة ليطرح أشعارهم فيها للغناء، فمن قول صاعد البغدادي يفاضل بــيــــن

[1] أحمد بن محمد المقري ، نفح الطيب ، ص 355 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، نقلا عن الفتح بن خاقان قلائد العقيان ، ص 211 .

[3] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، ص110 .

البهار والنرجس:[1]

جُمل الفضيلة للبهارِ بسبْقِهِ ولطالما خَلفَ البهارَ النرجسُ

أربَى عَليهِ طيبُهُ ونَسيمُهُ لكنَّهُ عن نشرِهِ يَتَنفَّسُ

كالحاجب الميمونِ شُبّه في العُلا بأبيهِ لكنْ فِعلُ هذَا أنفسُ

ومن طريف الأمور أن المنصور كان قد سمى بناته بأسماء الزهور فنظم الشعراء في وصف الأزهار قصائد تبين فضيلة كل نوع منها، وهم في هذا يحكون خصائص نبات المنصور نفسه.

ومن الغريب أن يكون شعر أبي تمام محركا في وصف الطبيعة الأندلسية، ونموذجا للأندلسيين في هذا المقام وبخاصة قصيدته التي يصف فيها الربيع ومطلعها:

رقت حواشي الدهر فهي تمرمرُ وغدا الثرى في حليه يتكسرُ

من ذلك قول أبي بكر ابن نصر الكاتب:

أُنظُرْ نَسيمَ الزَّهْرَ رَقَّ فوَجْهُهُ لك عن أسِرَّتِه السَرِيَّةَ يسفرُ

خضلٌ بريعان الربيع وقد غدا للعينِ وهو من النضارةِ منظرُ

وأما زهرة الشقيق فقد احتفل بها الأندلسيون احتفال المشارقة بها، فابن حمديس يبدي إعجابه بها فيقول:[2]

نظرتُ إلى حسن الرياض وغيمها جرى دمعهُ منهن في أعينِ الزَّهرِ

فلمْ ترَ عَيْنِي بَيْنَهَا كَشَقائقٍ تبلبلها الأرواحُ في القُضب الخضرِ

[1] المرجع السابق ، ص111 .

[2] ابن حمديس ، الديوان ، ص 203 .

" ولعل في هذا التشبيه كثيرا من الجدة والحركة والابتكار وأما ابن خفاجة فإنه في وصفه للشقائق يضفي عليها مسحة حربية فيجعل من أزهاره جيوشا تحتل القمم والمراقب فيقول:"[1]

يا حبّذَا والبرقُ يزحَفُ بكرةً  جيشًا رحيقٌ دونَه وحريقُ

حتى إذا ولَّى وأسلمَ عِنوةً  ما شئت من سهلٍ وذَروةِ نِيقِ

ولما كانت أبرز صفات الشقائق ذلك اللون الأحمر القاني فقد عمد الشعراء إلى الإكثار من الإضفاء عليها مسوح الحروب، وهاهو أبو الفضل عياض يصف الشقيق بين الزرع فيقول:[2]

انظُر الى الزَّرعِ وخاماتهِ  تحكي وقد ماستْ أمامَ الرياحْ

كتائبًا تجفُلُ مهزومةً  شقائقَ النُّعمَان فيها جراحْ

وربما كانت أبيات ابن الزقاق في الشقيق من أرقّ ما قاله الأندلسيون في هذه الزهرة البهيجة وإن كان قد أقام عليها «حد السرقة» حسب التعبير الفقهي حين جعلها مذنبة في نظر الغمام سارقة حمرة الخدود:

زُرْتُهَا والغَمَامُ يجلدُ مِنهَا  زهراتٍ تروقُ لونَ الرَّاحِ

قلتُ ما ذنبُهَا؟ فقال مجيبًا  سرقتْ حمرةَ الخدودِ الملاحِ

ولزهرة النيلوفر الجميلة المترفعة مكانة عند الشعراء فقد افتتن بها الأندلسيون، فهذا المعتمد بن عباد يصفها في حذق ولا يتخلى عن طبيعته الملوكية التي ألمحنا إليها فيقول:[3]

يا ناظرين ندَى النيلُوفَرِ البهجِ  وطيبِ مخبَره في الوفوحِ والأرجِ

كأنه جامُ دَرٍّ في تألقِهِ  قد أحكمُوا وَسْطه فصًّا من السَّبجِ

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان ، ص 162 .

[2] عبد العزيز عتيق ، الأدب العربي في الأندلس نقلا عن الفتح بن خاقان ،قلائد العقيان ص 422 .

[3] الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، ط الجوائب ، 1302 هـ ، ص 11 .

أو كما قال ابن حمديس في النيلوفر أيضا:

كأنّما النيلوفر المجتبى  وقد بدا للعين فوقَ البنانْ

مداهنُ الياقوتِ محمرةً  وقد ضُمنت شعرًا من الزعفرانْ

إلا أن هناك من شعراء الأندلس من افتتن بالزهر جميعه وانفتح صدره وأرهف حسه للإعجاب بألوانه وأنواعه دون عصبية لهذا أو لذاك، " يناجيه ويرسم له في نطاق الطبيعة السخيفة والروض النضير والماء النمير لوحات خلابة أخاذة هي في حقيقتها انعكاس لأحاسيس الشاعر ورهافة مشاعره، ونجد أبا الفضل جعفر بن محمد بن الأعلم يعبر عن غرامه الشديد بالأزهار في هذه الأبيات الرقيقة المليئة بالحركة الرشيقة:"[1]

انظر إلى الأزهار كيف تطلّعتْ  بسماوة الرّوضِ المجود نجومَا

وتساقطتْ فكأن مسترقًا دَنَا  للسمعِ فانقضَّتْ عليهِ رُجومَا

وإلى مسيلِ الماءِ قدْ رقمتْ صَنَا  عُ الريح فيه من الحُباب رُقومَا

تَرْمِي الرياضُ له نَثيرَ أزاهر  فَتُعِيدُهُ فِي ضِفَّتيهِ نَظِيمَا

" ولعلنا لا نستطيع أن نغفل المسحة الدينية التي جاءت في البيت الثاني وقد تمثل الشاعر في خاطرة قصة الجن وهي تسترق السمع فتنزل عليها رجوم السماوات تحرقها على أن ذلك ليس أجمل ما في الأبيات ،وإنما الأبيات جميعها باتساقها وحركة معانيها تنتهي بالشاعر إلى الصورة مكتملة أسباب الجمال كما أرادها."[2]

إن شعراء الطبيعة في الأندلس استطاعوا بغير شك أن يقدموا من خلال وصفهم للأزهار صورا نضيرة ولوحات جذابة في أكثرها أصالة وبراعة ، ولا يعاب بعضهم إن كان قد استقى من

[1] أبو محمد الحجازي وآخرون ، المغرب في حلى المغرب ، ص 396 .

[2] مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، ص 292 .

المشارقة بعض المعاني ، " فليس على المتأخر من بأس في أخذه من المتقدم طالما كان يسعى إلى مجال التطوير في الصورة ويهدي إلى التجديد في المعنى."[1]

[1] المرجع السابق ، ص 293 .

ومن مظاهر بذخ الطبيعة في الأندلس،" تلك الأنهار الكثيرة، الوفيرة الماء، السلسالة التدفق، تحيي موات الأرض مشرقا ومغربا وشمالا وجنوبا فترفد الأرض بالخصب والعطاء , وتمد الرياض بالسحر والنماء."[1]

وبدافع الحضارة المتطورة أدخل الأندلسيون " مياه الأنهار إلى قصورهم الباذخة ترفد البرك الفخمة في باحاتها من خلال أفواه التماثيل بالماء النمير الذي ألهب خيال الشعراء فقالوا شعرا عذبا في القصور والبرك والتماثيل على حد سواء."[2]

ولقد حاولنا أن نقدم نماذج تمثل هذه الموضوعات المائية وفضلنا أن نطلق عليها اسم المائيات وهو اسم متواضع في الشكل ولكنه في الحقيقة نفيس المحتوى .

إن أبا محمد بن صارة الشنتريني يجري محاولة في وصف بركة ضمت سلاحف ماء فيقول:[3]

لله مسجورةٌ فِي شكلٍ ناظرةٍ    مـنَ الأزاهـرِ أهـدابٌ لهَا وطـفُ
فيهَا سلاحفُ ألهاني تقامُصُهَا    في مائـهَا ولـهَا مـنْ عرْمَـضٍ لحَفُ
تُنَافِرُ الشط إلا حينَ يحضُرهَا    بـردَ الشتـاءِ فتُستدْلى وتَنـصَـرفُ
كـأنها حيـنَ يبديهَا تصرُّفُهَا    جـيشُ النـصارى على أكتافِهَا الجُحَفُ

وأما الأنهار فلا شك أنها لم تظفر بعناية الشعراء وولعهم بها و إبداعهم في تصويرها ظفرها بها عند شعراء الأندلس، فلقد أكثر الأندلسيون من القول فيها، وولدوا منها الصور الجميلة العديدة.

فيرسم ابن خفاجة هذه الصورة الشهيرة الرقيقة الأنيقة للنهر فيبدع ويرق وكأنما يكتب أبياتا غزلية في محبوب:[4]

---

[1] مصطفى الشبكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه، ص309.

[2] المرجع نفسه، ص309.

[3] المرجع نفسه نقلا عن الفتح بن خاقان ،قلائد العقيان، ص271.

[4] ، أحمد بن محمد المقري، نفخ الطيب من غصن الأندلس الطيب ،ج4، ص189.

لِلَّهِ نَهرٌ سالَ في بَطحاءِ أَشهى وُروداً مِن لِمى الحَسناءِ
مُتَعَطِّفٌ مِثلَ السِوارِ كَأَنَّهُ وَالزَهرُ يَكنُفُهُ مَجَرُّ سَماءِ
قَد رَقَّ حَتّى ظُنَّ قُرصاً مُفرَغاً مِن فَضَّةٍ في بُردَةٍ خَضراءِ
وَغَدَت تَحُفُّ بِهِ الغُصونُ كَأَنَّها هُدبٌ يَحُفُّ بِمُقلَةٍ زَرقاءِ
وَالريحُ تَعبَثُ بِالغُصونِ وَقَـــد جَرى ذَهَـبُ الأَصيلِ عَـلى لُجَيَنِ الـــــماءِ

وأما ابن العطار الشاعر الماجن فإنه يكثر من وصف ركوب النهر ويكثر من تشبيهه تكسر الماء بالدرع عامدا إلى الاستعارة الأنيقة والجِناس الطريف وهي الصورة التي كررها الصنوبري فيقول:[1]

مررنا بشاطيِ النهر بين حدائقٍ بها حَدَقُ الأزهار تستوقف الحَدَقْ
وقد نسجـت كفُّ النسيم مُفاضةً عليه دماً غير الحَبَاب لـها حَلــقْ

" وللدولاب الذي يمتح الماء من النهر والجدول أنين وحنين، وكان هذا الأنين ولا يزال مصدر سخاء وعطاء لقريحة الشعراء، كل يستوحي منه معنى يريد أن يسبق به غيره ويبز أقرانه جدة وطرافة "، فالرصافي البلنسي الرفاء الشاعر الرقيق يوحي إليه الدولاب (الساقية المصرية) بهذه الأبيات الوافرة العذوبة البادية الرقة:[2]

وذي حـــنيــن يـكاد شوقاً يختلس الأنفسَ اختلاسا
لمـّا غدا للرياضُ جاراً قال لهُ المحلُ لا مساسا
يبتسم الروض حين يبكي بأدُمع ما رأينَ باسا
مِن كل جَفنٍ يسُلُّ سيــفاً صـــار لـه غِـمــــــــدُهُ رِئاسا

[1] المرجع السابق، ج3، ص174.
[2]عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ، تحقيق محمد سعيد العريان، دط، القاهرة، 1947، ص223.

ومجمل القول أن شعراء الطبيعة الأندلسيين قد جودوا التجويد كله في تناولهم للمائيات، وكانت أخيلتهم خصيبة ممرعة، وقرائحهم سخية معطاءة، ومعانيهم زاخرة وافرة وأساليبهم متقنة الصنع في روية وأناة.

ومما يضاف إلى وصف الطبيعة اهتمامهم بوصف المباني والقصور الجميلة من مثل الزهراء والزاهرة ، وما يلحق بها من بساتين " ومن تماثيل على هيئة الأسود تقذف الماء من أفواهها إلى غير ذلك من مظاهر حضارية كانت تسحر الأبصار بروعتها وحسن إتقانها وتنوع طرائفها، ومن ذلك قول ابن هذيل يصف صفوف أشجار الصفصاف في أحد المصانع التي كانت للمنصور بن أبي عامر": [1]

وكأن صفّ وصائفٍ برزتْ إلى الـ ... منصورِ عنْ كللٍ منَ الصفصَافِ
قامتْ إليك كأنما أعنَاقُهَا ... أعناقُ نافرةٍ منَ الأخشَافِ
ريحُ الصَّبَا من روحها فغُصُونُهَا ... حركاتُ أيدٍ بالسلام لِطافِ
وتعلقتْ أوراقُهَا وتدافَعَتْ ... إن السوالفَ ملعبُ الأسيَافِ
عرضتْ عليكَ زمرُّدًا وتحوَّلتْ ... فأرتْكَ لونًا كاللُّجَينِ الصَّافِي

ومن ذلك قول محمد بن شخيص يصف الزهراء: [2]

فَاتتْ محاسنُهَا مجهودَ واصفِهَا ... فالقولُ كالسَّكتِ والإيجازُ كالخطَلِ
بلْ فضْلهَا في مبانِي الأرضِ أجمْعِهَا ... كفضْلِ دولةِ بَانيهَا على الدُّوَلِ
كادَتْ قُسِيَّ الحنايَا أن تضارعَهَا ... أهلةَ السعدِ لولا وصمَةُ الأُفُلِ
تألفَتْ فغدَا نُقصَانُهَا كملاً ... وربَّمَا تَنْقُصُ الأشيَاءُ بالكمَلِ
كمْ عاشِقَيْنِ مِنَ الأطيارِ مَا فَتِئَا ... فيهَا يَرُودَان مِنْ روضٍ إِلَى غُلَلِ

[1] إحسان عباس، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 112-113.
[2] المرجع نفسه، ص113.

وبعدُ... فإذا كان المشارقة قد سبقوا إلى شعر الطبيعة، فإن شعراء الأندلس قد لحقوا بهم في هذا الفن الشعري، ثم فاقوهم فيه بالتوسع والتنوع في موضوعاته، مع كثير من دقة التصوير، والابتكار في معاني الوصف، والتفنن في أساليب التعبير.

وقد حاولنا قدر المستطاع بجولتنا في شعر الطبيعة الأندلسي أن نلم بأهم سمات هذا الشعر واتجاهاته المختلفة، مع نماذج شتى توضحها وتبرزها.

ولعل أهم ما يؤخذ عليهم في تصويرهم الطبيعة أنه تصوير لظاهرها دون باطنها، أو بمعنى آخر " أنهم وقفوا من الطبيعة موقف المصور الذي التقط لها صورا من بعد، دون أن يدخل في صميمها، ويطل علينا من خلالها بروحه وقلبه وعواطفه، اللهم إلا في القليل من النماذج التي مرت بنا أو كوصف ابن خفاجة للجبل وغيرها من النماذج."[1]

[1] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص318.

# الفصل الثاني

# الفصل الثاني

## قصيدة "الجبل"لابن خفاجة في ميزان الفن .

1) حياة ابن خفاجة .

2) ابن خفاجة وصَّافًا للطبيعة .

3) قراءة في قصيدة " الجبل" لابن خفاجة .

أ) نص القصيدة .

ب) الأبعاد النفسية .

ج) الأبعاد الجمالية .

**حياة ابن خفاجة :**

هو أبو إسحاق إبراهيم بن أبي الفتح عبد الله بن خفاجة ، ولد عام 450هـ ( 1058 م ) في جزيرة شقر من أعمال بلنسية شرقي الأندلس المطلة على البحر المتوسط ، العروس المقلدة بنهرها ، "المتلفعة من جناتها بسندس وروض بسَّام وبلبل وحمام ، وهي منطقة غنية بمساقط المياه والينابيع ، غارقة في الخضرة الطبيعية وعناية زراعية فائقة ، وفي هذه الجنة الفيحاء نشأ ابن خفاجة في أسرة على جانب كبير من اليسر والعلم والأدب ، وأقبل على الدرس والتزود بالآداب العربية"[1]، وعاش أيام ملوك الطوائف إبَّان دولة المرابطين ، "لكنه استغنى وتعفف عن انتجاع الأمراء والحكام وعن مدِّ يده إليهم كما فعل الشعراء من حوله لأنه كان مكفول الرزق بضيعة ورثها عن آبائه" [2].

وقد تلقى بذلك تربية حسنة وتكوينا ملائما لمرتبته ومواهبه وتكوينه الأدبي الخالص فتفتحت موهبته الشعرية ،أما عن حياة الشاعر في شبابه فلا نكاد نعرف سوى ما ذكره معاصره الفتح بن خاقان من أنه" كان مخلوع الرسن في ميدان مجونه ، لا يبالي بمن التبس ولا بأي نار اقتبس"[3] ، ولكن من المرجح أنه عاش حياة هادئة في عصر ملوك الطوائف منقطعا إلى نفسه لا يتصل بأحداث عصره ، كل ما يهمه هو التمتع بشبابه ،" ثم خرج عن الأندلس إلى المغرب واستقر مدة من الوقت ذلك أن السيد القمبيطور احتل مدينة بلنسية ، وروَّع أهلها وأحرق حاكمها ابن الجحَّاف حيّاً ، وعاث فسادا فغادر كثير ديارهم وأوطانهم ، حتى تسنى للمسلمين استعادة المدينة سنة 495 هـ ، بعد أن انتدب لها المرابطون خيرة قوادهم ".[4]

---

[1] عيسى خليل محسن ، أمراء الشعر الأندلسي ، دار جرير للنشر والتوزيع ، عمان ، ط 1 ، 2007 م ، ص 292 .

[2] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، دار الفكر ، دمشق ،ط 1 ، 2000 ، ص 331 .

[3] فتيحة دخموش ، تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي ( رسالة ماجيستير ) ،جامعة قسنطينة ، 2004/ 2005 ص 51 نقلا عن قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ص 266 .

[4] محمد رضوان الداية ، المختار من الشعر الأندلسي ، دار الفكر ، دمشق ، ط 3 ، 1992 ، ص 122.

أما عن شيوخه فنخص بالذكر "بن أبي تليد وهذا من جانب الدين ، أما عن تكوينه الأدبي فكان للأستاذ ابن الصواب دور كبير في تعليمه وتثقيفه" [1] ، وهذا ما جعل له لاحقا مكانة في عصره عند الحكام من أمراء الطوائف وعند المرابطين من الحكام والقادة وطبقتهم ، "وكانت له صداقات مع كبار رجال عصره من العلماء والفقهاء والأدباء والشعراء مثل ابن السيد البطليوسي ، وابن أبي الخصال وابن باجة وابن وهبون ....."[2]

وقد عمر الشاعر طويلا ، فقد امتدت حياته 82 سنة ، ويبدو من قول ابن خاقان أنه لما تقدمت به السن واعترته الشيخوخة والأمراض:" تَنَسَّكَ تَنَسُّكَ أبي أذينة ، وغض بصره عن إرساله في أعقاب الهوى ، وراح يتذكر أيام الشباب ويتحسر عليها ، فالكهولة قد حنكته واسلكته من طرق الإرعواء حيث أسلكته ... "[3]

حتى أنه قال قبيل وفاته لما بلغ مرحلة الملال من تقلب الأيام ومرور السنين وضعف جسمه :[4]

أي أنسٍ أو غذاء أو سِنَـهْ        لابنِ إحدَى وثمانِينَ سَنَـهْ

قلَّصَ الشيبُ بها ذيلَ امرئٍ        طَالمَا جَرَّ صِبَاهُ رَسَنَـهْ

تـارةً تخـطـو بـهِ سَيِّئَـةٌ        تُسخنُ العينَ وأخْرَى حَسَنَهْ

وافته المنية سنة 533 هـ ( 1138 م ) .[5]

[1] حمدان حجاجي ، حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1974 م، ص 42 .

[2] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، ص 332 .

[3] فتيحة دخموش ، تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي ( رسالة ماجيستير ) ص 51 نقلا عن قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، ص 266 .

[4] محمد رضوان الداية ، المختار من الشعر الأندلسي ، ص 113.

[5] حنا الفاخوري ، تاريخ الأدب العربي ، ص 842 .

## ابن خفاجة وصّافا للطبيعة :

عُرف ابن خفاجة في تاريخ الأدب العربي عامة والأدب الأندلسي خاصة ، ولدى معظم الدراسين بأنه شاعر الطبيعة الأول وقد لقبوه بجنّان الأندلس نظرا لإبداعه في وصف الطبيعة بشتى مظاهرها " فقد امتلأت نفسه وعينه من جمال الحياة وجمال الطبيعة ، فراح يبرز هذا الجمال المعنوي في صور مختلفة من الجمال اللفظي ، فانتقى الأساليب الصافية والألوان الزاهية ودبجها بزخرف البديع ووشاها بكثير من المجاز والتشبيه "[1] ، وقد " انطلق من قاعدة الحب العميق والارتباط الوثيق بطبيعة بلده شقر ووطنه الأندلس ، فعبر عن مشاعره وأحاسيسه بشعر مفعم بالعواطف ، زاخر بمشاهد الطبيعة في تجلياتها المختلفة ، مما يدل على احساسه العميق بها ، وتجاوبه الحي مع عناصرها وظواهرها ومعطياتها "[2] ، وهو شعور أفصح عنه هو بنفسه فقال " إكثار هذا الرجل – يعني نفسه – في شعره من وصف زهرة ونعت شجرة وجرية ماء ورنة طائر ، ماهو إلا لأنه كان جانحا إلى هذه الموصوفات لطبيعة فطر عليها ، وإما لأن الجزيرة كانت داره ومنشأه وقراره ، وحسبك من ماءٍ سائح وطير صادح ، وبطاح عريضة وأرض أريضة ... حتى غلب عليه حب ذلك الامر فصار قوله فيه عن كلَف لا تكلف " [3]

فتعد الطبيعة مجالا خصبا لبث عواطفه وأفكاره وتصوراته ، فلا نعجب إذا وجدنا في شعره مثل قوله :

وما العيشُ إلا بين ريحِ حديقة        ورنَّــة غــرِّيــدٍ وغُــرَّة ســابــحِ
فنل من جنا هذا وذاك وهـــذه        وجُلْ بينَ هاتيكِ الرُّبَا والأباطحِ [4]

---

[1] أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص 248 .
[2] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ( رسالة ماجستير ) جامعة دمشق ، 1983 ، ص 126 .
[3] المرجع نفسه نقلا عن ابن خفاجة ، الديوان ، ص 260
[4] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، ص 335 .

فالعيش في نظره لا يحلو في غير أحضان الطبيعة الفاتنة وبين ربوعها الطيبة ، إذ لا يطيب في غير أجوائها المقام .

كما أننا لا نعجب إذا وقفنا على شعر يفيض بالعاطفة والحنين ، ينمُّ على علاقة وثيقة وصلة بالطبيعة قوية ، " تلك الطبيعة التي نشطا في أحضانها ، واستودعها أحلى ذكريات عمره ، وأجمل ساعات أنسه ، فالأندلس جنة لا يكاد يبعد عنها حتى يحس بالشوق والحنين إليها "[1] :

إن للجنَّةِ فِي الأندَلسِ       مُجتلى حَسَنٍ وريَّا نَفَسِ

فَسَنَا صُبْحَتُهَا مِنْ شَنَبٍ       ودُجى ليلتهَا من لعَسِ

فإذا مَا هبَّتِ الريحُ صَبًا       قلتُ واشوقِي إلى الأنْدلسِ [2]

وقد وصف ابن خفاجة ماجادت به الطبيعة من مناظر فاتنة تأسر اللب وتسحر العين ، ومما استولت واسترعت اهتمامه الروضيات ، " وإذ به يرى روضا قد روته غمامه وتفتحت أزهاره وطلع عليه الصبح ، فكشف عن رونقه وبهائه ، يفتن الشاعر ويجذبه إليه فيمتع نظره بمحاسنه ويصور جماله تصويرا يفيض حركة ويمتلئ حياة ، موظفا في ذلك ثقافته الشعرية وعاكسا مشاعره الدفينة "[3] :

وكمامةٍ حَدرَ الصباحُ قناعهَا       عَنْ صفحةٍ تَندَى مِنَ الأزهارِ

في أبطُحٍ رضعَتْ ثغُورُ أقاحهِ       أخلافَ كل غمامَةٍ مدرارِ

نثرت بحجر الأرض فيه يد الصبا       دُررُ النَّدَى ودَراهِمُ النُوَّارِ

وقدْ ارتدَى غُصنَ النقَا وتَقَلدَتْ       حُليَ الحُبَابِ سوالفَ الأنْهارِ

فَحللتُ حيثُ الماءُ صفحةُ ضاحكٍ       جذلٍ وحيثُ الشطُّ بدءُ عِذَارِ

---

[1] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة ، ص 127 .
[2] محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، ص 335 .
[3] المرجع السابق ، ص 132 .

والريـحُ تـنفُـضُ بُـكرةً لِـمَـمَ الـرُّبَى والطـلُّ ينـضَحُ أوْجُهَ الأشْجَارِ

مُتَـقـسِّمُ الألـحاظ بيـنَ مـحاسنٍ مِنْ ردفِ رابيَـةٍ وخصُرِ قـرارِ

وأراكــةٍ سـجعَ الـهديلُ بفرعِـهَا والصبحُ يُسفرُ عن جبِينِ نَهَارِ

هـزَّتْ لـهُ أعْـطـافَـهَا ولرُبَّــمَا خَلعـتْ عـليهِ مُلاءةَ الأنوارِ [1]

وإذا الطبيعة تفتنه مرارا في شتى مظاهرها ، وهي قد التحفت بالغمام وتساقطت قطرات الندى على شجرها وزهرها فتلألأت تحت ضياء الشمس بعد انقشاع الضباب . فيقول :

وَمجرِّ ذيلِ غمامةٍ قدْ نَمقـتْ وشْـيَ الربيـعِ بـهِ يـدُ الأنْواءِ

ألقيتُ أرحُلـنَا هناكَ بـقبَّــةٍ مـضروبةٍ مِنْ سرحةٍ غنَّـاءِ

وقسمتُ طرفَ العينِ بين ربَّاوةٍ مـخضرةٍ وقـرارةٍ زرقَــــــاءِ

وشـربتُـهـا عـذراءَ تـحسبُ أنَّـهَا معصورَةً من وجْنَتَيْ عَذْرَاءِ[2]

وكثيرا ما ينجذب الشاعر إلى الطبيعة في جوها العامر بالحركة والضياء ، " حيث الظل الوارف والماء السائح ، والأزهار الراقية الألوان ، فيستسلم لمنظرها الرائع فيبرز ما اشتملت عليه من حسن وبهاء مصورا إياها تصويرا مفعما بالحركة "[3]، وذلك كما في قوله :[4]

وأراكــةٍ ضـربَـتْ سـماءً فوقَـنَا تَنْدَى وأفلاكُ الكؤوسِ تُدَارُ

حـفَّت بدوحتـهَا مجرةُ جدولٍ نـثرَتْ عليـهِ نـجومَهَا الأزهارُ

وكـأنَّـهَا وكـأنَّ جـدولَ مَائـهَــا حسناءُ شُدَّ بـخصـرِهَا زُنَّـارُ

[1] ابن خفاجة ، الديوان ، شرح عمر فاروق الطباع ، دار القلم ، بيروت ، دت ، ص 107

[2] المرجع نفسه ، ص 12 .

[3] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة ، ص 140 .

[4] المرجع السابق ، ص 150 .

زفَّ الزجاجُ بِهَا عروسَ مُدامةٍ تُجْلىَ ونوَّارُ الغصونِ نِثَارُ

فِي روضةٍ جُنَحُ الدُّجَى ظلٌّ بهَا وتجَسمتْ نورًا بهَا الأنوارُ

غناءَ ينشرُ وشيه البزَّازَ لي فيهَا ويفتَقُ مسكهُ العطارُ

قامَ الغناء بهَا وقد نضحَ الندى وجهَ الثرَى واستيقظَ النُوَّارُ

والماءُ من حُلىِ الحياءِ مقلدٌ زرَّتْ عليهِ جُيُوبُهَا الأشجَارُ

وقال واصفا أيضا :[1]

وحاملةٍ من بَنَاتِ القَنَا أماليدَ تحملُ خضرَ العَذَبْ

تنوبُ مؤرقةً عنْ عذارٍ وتضحكُ زاهرةً عنْ شنَبْ

وتندَى بها في مَهَبِّ الصَّبَا زبرجدةً أثمِرتْ بالذهَبْ

تفاوِحُ أنفَاسهَا تارةً وطورًا تغازلهَا منْ كثَبْ

فهذا الوصف أعطى صورة حسية وجمالية للذات القارئة ، التي تتطلع لجميل الكلام وجزالة المتن في التركيب والوصف ، " مستوحيا بذلك عناصر الطبيعة الحية والصامتة ، لتزيد على جمال التأليف بالنسبة للشاعر إبداعا وانفرادا وتميزا " .[2]

وقال أيضا واصفا الطبيعة والأزهار :[3]

وقدْ جَالَ في جَونِ الغمامةِ أدهمٌ له البرقُ سوْطٌ والشمالُ عنانُ

وضمَّخَ ردغُ الشمسِ نحرَ حديقةٍ عليهِ من الطلِّ السَّقيطِ جُمَانُ

[1] علي غريب محمد شناوي ، دراسات في الشعر الأندلسي ، مكتبة الآداب ، جامعة المنصورة التشجيعية ، ط1 ، 2003 ، ص 240 .

[2] محمود نافع ، اتجاهات الشعر الأندلسي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1990 ، ص 187 .

[3] عيسى خليل محسن ، أمراء الشعر الأندلسي ، ص 294 .

وتمتْ بأسرارِ الرياضِ خميلةٌ لها النُورُ ثغرٌ والنسيمٌ لسانُ

ولم تكن الطبيعة تستهويه مغمورة بضياء النهار فحسب ، بل استهوته أيضا في الليل حيث الصمت والهدوء ، " فينتقل بذلك بين المشاهد المختلفة ثم يقف عند مشهد رائع ، مشهد تنفس الصبح وانبعاث الحركة وتجدد الحياة "[1] ، فيصف ذلك كله ويختم المشهد بصور يرسمها للصبح :

جاذَبْتُهُ فضلَ العنان وقد طغَى فانصَاعَ ينسابُ انسيابَ الأرقمِ

في خُضرِ عودٍ بالأراك موشَّحٍ أو رأس طودٍ بالغَمام معَمَّمِ

أو بحرِ نحرٍ بالحُبابِ مقلدِ أو وجهِ خرقٍ بالضَّريبِ ملثَّمِ

حَتَّى تهادى الغصنُ يأطُرُ مَتنُهُ طربًا لشدوِ الطائرِ المترَنِّمِ

وكأنَّ ضوءَ الصبح رايةُ ظافرٍ نَفَضت به الهيجاءُ نضحًا من دمِ[2]

وإذ به يصف كذلك القمر وهو مظهر آخر من مظاهر الكون الليلية دفعت الشاعر إليه غربته التي تزداد يوما بعد يوم ، وزمنا بعد زمن ، ووحدته التي بلغت ذروتها ، " فأطرق متاملا في معنى ذلك القمر وكسوفه تارة وإقماره أخرى ، أو نقصانه تارة واكتماله أخرى ، الأمر الذي حفز الشاعر على مناجاته ونسب هذه المناجاة إلى القمر نفسه "[3]، حيث يقول : [4]

لقدْ أصختُ إلى نجْواكَ مِنْ قَمَرٍ وبتُّ أدلجُ بينَ الوعْيِ والنَّظرِ

لا أجْتلي لمَحًا حتَّى أعِي مُلحًا عدلا منَ الحُكم بينَ السمْعِ والبصَرِ

وقدْ ملأتَ سوادَ العينِ من وضحٍ فقَرِّط السَّمعَ قرطَ الأنْسِ مِنْ سَمَرِ

---

[1] بومدين كروم ، الطبيعة في الشعر الأندلسي ، ص 144 .

[2] ابن خفاجة ، الديوان ، ص 207 .

[3] فتيحة دخموش ، تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي ،ص 143 .

[4] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي .عصر الطوائف والمرابطين ، ص 128 .

فَلوْ جَمَعْتَ إلى حُسنٍ مُحاورَةً　　حُزْتَ الجَمَاليْنِ مِنْ خُبْرٍ ومِنْ خَبَرِ

وإنْ صَمَتَّ فَفِي مَرَآكَ لِي عِظَةٌ　　قدْ أفَصَحتْ لِيَ عنهَا ألسنُ العِبَرِ

كما أن شاعرنا ابن خفاجة تنقل بين ربوع الطبيعة واصفًا ، آخذا مواطن الجمال منها ، مذكرا في الصور المبثوثة هنا وهناك بألوانها وأصباغها ، فعني بالمائيات وراح يصف نهرا في تصوير مادي وتشبيه حسي يملأ العين بما فيه من ألوان وضياء ، وتستريح الأذن لموسيقى كلماته المنتقاة . يقول : [1]

للهُ نهرٌ سالَ في بطحاءِ　　أشهَى ورودًا من لمَى الحَسنَاءِ

متعطِّفُ مثْلِ السوَارِ كأنَّهُ　　والزهرُ يكنِفُهُ مَجَرُّ سَمَاءِ

قد رقَّ حتَّى ظُنَّ قُرصًا مُفرَغًا　　مِن فضةٍ في بُردةٍ خضراءِ

وغدتْ تحفُّ بهِ الغُصُونُ كأنَّهَا　　هَدَبٌ يَحفُّ بِمقَلةٍ زرْقَاءِ

والماءُ أسرعَ جريُهُ مُتَحَدِّرًا　　مُتَلوِيًّا كالحيَّةِ الرَّقطاءِ

والريحُ تعبثُ الغصونِ وقدْ جَرَى　　ذهبُ الأصِيلِ علَى لُجينِ الماَءِ

والمستقرئ لشعر ابن خفاجة يجد أنه لم يلقب الجنَّان اعتباطا ، بل مرد ذلك إلى ولعه المنقطع النضير بالطبيعة بالطبيعة ، فكان حتى إذا مدح مزج الطبيعة في مدحه وتغنى بها وبمظاهرها . يقول في قصيدة له :

لِذكرك ما عبّ الخليجُ يَصفقُ　　وبإسمك ما غنَّى الحمام المطوقُ

ومن أجلكَ اهتزَّ القضيبُ على النَّقَا　　وأشرفَ نوارُ الرُبَى يتفتَّقُ

وما ذاكَ إلا أنَّ خلقَكَ رائقٌ　　يَهزُّ كما هزَّ الرحيقُ المُعتَّقُ[2]

[1] أحمد حسن الزيات ، تاريخ الأدب العربي ، ص248 .

[2] ابن خفاجة ، الديوان ، ص 158 .

وقال أيضا مادحا : [1]

ألا هَـلْ أطلّ الإمـيـرُ الأجَلُّ        أمِ الـشَّمسُ حَلّتْ برأسِ الحَمَلْ

فَمَـا شئـتَ من زَهرَةٍ خُضْرَةً        تَـرَدَّى القضيـبُ بِـهَا واشْـتَمَـلْ

وهَـزَّ مَعَـاطفَــهُ والتَــــوَى        بمسرَى النَّسيمِ الـتواءَ الجدَلْ

وكان إذا تغزل واصفا امرأة نابت نضارة الطبيعة عنها :

يَا بَـانَـةً تـهْـتَـزُّ فـينَـانَةً        وروضـةً تفَـتَّـحُ مِعْـطارَا

لله أعطافُكِ مِنْ خطوَةٍ        وحَبَّـذَا نُورُكِ تَــــوَّارَا [2]

وكان إذا شرب الخمر مزجها بألوان الطبيعة :

وشربتُـهَا عـذراءَ تَـحسَـــبُ أنَّهَا        معـصُورةً مـن وَجـنَـتَـيْ عَذراءِ

خُذهَا كمَا طلعتْ عليكَ عـارَةً        مُـفـتَـرَّةً عَنْ لـؤلـؤِ الأنْـدَاءِ

ومجمل القول أنه من الصعب العسير أن نحيط إحاطة شاملة بشاعر كابن خفاجة من حيث كونه وصافا للطبيعة ، وما الأمثلة التي استقيناها من شعره إلا قطرة من بحر وفيض من غيض مما جادت به قريحة شاعرنا ، لكن الملاحظ أن بيئة الأندلس وسحرها كان لها الدور الجلي في إعطاء ابن خفاجة دافعا قويا في بلوغ هذه المنزلة الشعرية ، يقول الحميري :" الأندلس شامية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها ، هندية في عطرها وذكائها ، أهـــوازيـــة في عظم جباياتها ، صينية فــي جواهر معادنها ، عدَنية في منافع سواحلها ... "[3] ، كل هذا جعل ابن خفاجة يحب الأندلس ويتعلق بها وبطبيعتها الساحرة ، وكما أوضح الدكتور جودت الركابي هذا التماهي بقوله : " وقد قدم لنا

[1] حنان اسماعيل أحمد عمايرة ، الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، جامعة دمشق ، مج 27 ، العدد 1 + 2 ، 2011 ، ص 233 .

[2] ابن خفاجة ، الديوان ، ص 119 .

[3] فتيحة دخموش ، تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة ، ص 51 نقلا عن الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ،ص 03 .

لوحات تنم عن امتزاج الشاعر بالطبيعة وصدق عاطفته نحوها وتشخيصه لها حتى أصبحت لسان نجواه وخفقة قلبه "[1] .

وهو يعبر عن ذلك الجمال الذي انتظم ربوعها :

يَـا أهـلَ أنـدلـسٍ لـلّه درُكُـــمُ مَـاءٌ وظـلٌ وأنـــهَـارٌ وأشـجَارُ

ما جنَّـةُ الـخلـدِ إلا فِي ديَاركـمُ وهَـذِهِ كـنـتُ لو خُيِّرتُ أخْتَارُ

لا تتقُّوا بعدَهَا أن تَدْخُلُوا سَقَرَا فـلـيـسَ تُـدخـلُ بَعدِ الجنَّةِ النَّارُ

كما أن ابن خفاجة جرى على الإكثار من الصور والتشبيهات مبرزا مهارته وبراعته في رسم مناظره متجاوزا المرئي المشاهد إلى مزجه بذاته الشاعرة مضفيا عليها الحركة والحيوية والنشاط ، مؤسسا الطريقة الخفاجية في الوصف التي حذا فيها كثير من الشعراء حذوه واعتمدوا في شعرهم على شاكلته كابن سعيد ومطرف الغرناطي والرصافي وغيرهم .[2]

[1] جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، القاهرة ، دت ، 1960 م ، ص 287 .

[2] ينظر فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، الاسكندرية ، ط1 ، 2007 ، ص 145 .

## 3)قراءة في قصيدة الجبل لابن خفاجة :

### أ) نص القصيدة :[1]

بِـــــعيـشِكِ هَـلْ تَدْرِي أهَوجُ الجَنَائِبِ ... تَخبُّ بِرَحْلِي أمْ ظهُـــورُ النَّجائِـــبِ

فَمَـا لـــحُتُ في أُولى المشَارق كوكَـبًا ... فأشرَقْتُ إلا جُبْتُ أخْرَى المَغَـــارِبِ

وحِيـــدًا تَهادَانِي الفَيَافِي فَأَجْــــــتَلِي ... وُجُــــــوهَ المَنَايَا فِي قِنَاع الغَيَاهِـــبِ

و لا جَــارَ إلا مِــنْ حُسَامٍ مُصَمَّـــمٍ ... ولا دَارَ إلا فِـــي قُـتُـــودِ الرَكَائِـــبِ

ولا أنْـسَ إلاَّ أنْ أُضَـاحِـــكَ سَـاعَــــةً ... ثُغُورَ الأمَـانِي فِي وُجُوهِ المطَالِـــبِ

بِليْـلٍ إذَا مَـا قُـلْـتُ قَـدْ بَادَ فانْقَضَـى ... تَكشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظنِّ كَـــاذِبِ

سَحَبْتُ الـديَاجِي فِيـهِ سُودَ ذَوائِـــبٍ ... لأعتَنـقَ الآمَـالَ بِيـضَ تَـرَائِــــــبِ

فَمزَّقْتُ جِيبَ اللَّيلِ عَنْ شَخْـصِ أطْلسٍ ... تَطلَّعَ وضَّاح المَضَاحِـكِ قَاطِـــبِ

رَأيـتُ بـهِ قَـطعًا مِنَ الفَجْـــر أغْــبَشًا ... تَـأمَّـلَ عَـنْ نَـجْـمٍ تَـوقَّـدَ ثَاقِــــبِ

وأرْعَـــن طـمَّـاحِ الـــذُؤابَـةِ بَـاذِخٍ ... يُـــطاوِلُ أعْنَـانَ الـسَّمَـاءَ بِغَـــارِبِ

يَسُـدُّ مَـهَّـبَ الـريحِ عَـنْ كُـلِّ وجْهَةٍ ... ويَــزْحَمُ لـيْلاً شُهبَهُ بِالـمَنَـاكِـــبِ

وَقُـــورٍ عَـــلَى ظَـــهْرِ الـفَلاةِ كَـأنَّـهُ ... طـوالَ الليالِي مُطـرِقٌ فِي العَــــواقِبِ

يَــلوثُ عَلـــيهِ الــــغَيمُ سُودَ عَمائمٍ ... لـهَا مِنْ وَميض البرْقِ حـــمرَ ذَوائِبِ

أَصَـخْــتُ إلـيْـهِ وَهْـوَ أخْـرَسُ صَامِتٌ ... فَحـدَّثَـنِي لـيْلُ الـسُّرَى بِـالعَجَائِبِ

وَقَـالَ ألَا كَمْ كُنْتُ مَلجَـــأَ فَاتِـكٍ ... وَمَــــوطِنَ أوَّاهٍ تَـبَتَّـــلَ تَـــائِـــبِ

وكــــــمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدلـجٍ ومُـــؤَوِّبٍ ... وقَـال بِظلِّي مِنْ مَطــيٍّ و رَاكـبِ

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان ، ص 89 .

ولاطـــــمَ مِـنْ نَـكـبِ الـرِيَّاحِ مَعَاطـفِي وزَاحَمَ مِنْ خُـضْــرِ البِـحَارِ جَوانِبِي

فـــــمَا كـان إلا أنْ طوتْهُم يَدُ الرَدَى وطارتْ بِـهِـمْ ريــحُ النَّوَى والنَّوَائِـبِ

فمَـا خـفْقُ أيْكِي غــيْرُ رجْفَةِ أضْلعٍ ولا نوحُ ورقِيٍّ غـيـرُ صَــرخةِ نَـادبِ

ومَا غيَّضَ السُلوانُ دَمْـــــعِي وإنَّــمَا نزفتُ دُمُوعـي فِي فِراقِ الأصَاحِبِ

فحتَّى مَتَى أبْقَى ويظعَـنُ صَـــــاحِبٌ أودِّعُ منـــهُ راحِلاً غــيــرَ آيِـــبِ

وحَتَّى مَتَى أرْعَى الكواكبَ سَاهِـــــرًا فَـمِـنْ طـالـعٍ أخْـرَى الليَالي وغَارِبِ

فَأسْـمَعَنِــي مِـنْ وَعظـهِ كُـــــلَّ عِبْرَةٍ يُترجمُهَا عَنْهُ لسَـــانُ التَّجَــارِبِ

فَسَلىَّ بمَا أبْكَى وسَرَّى بمَا شَجَـــــا وكانَ عَلىَ لَيْل السُّرَى خيرَ صَاحِبِ

وقلـتُ وقـدْ نَـكَّبْـتُ عَـنْـــــــهُ لطيَّةٍ سلامٌ فـإنَّـا مِـنْ مُـقِيـمٍ وذَاهِـــــبِ

**أ) الأبعاد النفسية :**

" تعرف القصيدة بإسم "وصف الجبل" أو "بائية ابن خفاجة" أو "مقيم وذاهب" أو "في الاعتبار" ، وليست هذه العناوين جزءا أصيلا في القصيدة ، وإنما وضعها لها – اجتهادا- بعض المنتقين ،وبالنظر إلى مضمون القصيدة فإننا نرى العنوان الأكثر التصاقا هو "وصف الجبل" ، لأن العنوان هو ذاكرة النص وعقله المفكر ."[1]

يتحدث ابن خفاجة في نصه هذا عن" تجربة تأملية فكرية ، مبعثها مشاهد طبيعية ، وقالبها ذو ملامح قصصية تجمع بين خصائص شعر التأمل والحكمة وسمات شعر الطبيعة والوصف ، والجانب الطبيعي في الصور التي حملت التجربة وحركت الإحساس .[2]

والملاحظ من خلال مطلع القصيدة ومضمونها كليا أن الشاعر قد نفخ من روحه في الجبل ، فإذا هو كئيب قد ملَّ الحياة على ظهر الفلاة وقد ودع أصحابه ، وهو قائم منتصب يرعى النجوم ويراقب أفولها وهو قد تجاوز الثمانين فمل الحياة ، وقد خرج الشاعر من وصفه الحسي إلى أبعاد لا يفهمها القارئ العادي بمجرد المعنى الظاهر بل متجاوزا إياه إلى معاني عميقة أراد الشاعر التعبير عنها من خلال الحوار الذي أداره على لسان الجبل .

ففي بادئ الأمر تعددت الآراء وتضاربت الآراء في ربط القصيدة بنفسية الشاعر لكن المجمع عليه هو أن القصيدة " بالغة الدلالة على حال الشاعر و نفسيته قي تلك الحقبة من حياته ، حيث جعل الجبل معادلا موضوعيا لنفسه وعمره الطويل وما مر عليه من حوادث الخير والشر واستشعر فيه العزاء والسلو"[3] ، إذ وبصيغة أخرى فإن الجبل لم يكن غاية بذاته ولم يكن المقصود بالدرجة الأولى وإنما استعاض به الشاعر ورسم صورته " التي تمثل الطموح والارتفاع والاعتراض والوقار الصامت الذي

[1] ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ص 586 .

[2] سعد بوفلاقة، في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى،منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، 1425 هـ 2004 – م ، ط1 ، ص 18.

[3] ابن خفاجة ، الديوان ، ص 215 .

يشبه إطراق المتأمل ، ثم يأخذ هذا الصامت في سرد ما مر به من مشاهد فهو شخص آخر إزاء الشاعر يحدثه "[1]

أو أنَّ الجبل قد صور نفس الشاعر في حزنها ، وعبَّر عنها في هذا النص وكأن الشاعر يبكي نفسه من خلال الجبل .

افتتح الشاعر قصيدته بقوله :

بِعيشِكِ هَلْ تَدْرِي أهَوجُ الجَنَائِبِ تَخبُّ بِرَحْلِي أمْ ظهُـــورُ النَّجائِبِ

فَمَا لحْتُ في أُولى المشَارق كوكبًا فأشرَقْتُ إلا جُبْتُ أخْرَى الكَواكِبِ

يطرح من خلال البيتين "إحساسه بالغربة النفسية والزمانية حينما طال به العمر ووجد نفسه وحيدا دون أقرباء وأصدقاء ، الأمر الذي ولد إحساسا آخر بالقلق والخوف من الحاضر ، وكذا هو تعبير عن سرعة انتقاله من مرحلة الشباب إلى مرحلة الشيخوخة ، فالنجائب وهوج الجنائب القوية يمكن اعتبارها تعبيرا عن قوة وسرعة التحول من الشباب إلى الشيخوخة"[2] ، فهو لم يكد يظهر في المشرق كوكبا شابا حتى وجد نفسه قد وصل المغرب الذي يمكن اعتباره إشارة إلى قرب انطفاء الحياة أو قرب الأجل ، "فكنى بالمشارق عن طفولته وشبابه ، وبالمغارب عن شيخوخته وقرب نهايته ، وكلاهما يثير في نفس الشاعر من المخاوف ما يثيره الليل الموحش وأكثر"[3] ، وهو دلالة واضحة على عدم استقرار نفسية الشاعر وتزعزعها مما خلق جوا من الاضطراب والقلق تمكن من الشاعر تمكنا عظيما .

ثم ينتقل إلى قوله :

وحِيدًا تَهادَانِي الفَيَافِي فَأَجْتَلِي وُجُوهَ المَنَايَا فِي قِنَاع الغَيَاهِبِ

[1] عبد الله محمد العضيبي ، النص وإشكالية المعنى ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2009 م ، ص 99 .

[2] فتيحة دخموش ، تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، ص 126 .

[3] بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة ، ص 180.

ولعل ما يزيد معاناة الشاعر النفسية مع الرحيل ،" تلك المخاطر التي يواجهها والمتمثلة في المنايا التي تتربص به بشكل خفي إذ لا يشعر بها إلا عند مواجهته لها ، ولعل في الفعل تهاداني ما يوحي باستسلام الشاعر لقدره المجهول"[1] ، وإذا بابن خفاجة يُظهر "قلقًا عجيبا من الموت ويتشبث بمفاهيم البقاء ، مع قناعته التامة بحتمية الموت وشموليته ، وجزئية القلق من الموت هي جزئية أرقت ابن خفاجة وشكلت في شعره هاجسا وجدانيا عميقا ،إضافة إلى أن الإقبال على المجهول يفرض على النفس صنوفا من محاورات ذاتية يغلفها الخوف ،فالإنسان هو الحيوان الوحيد الذي يدرك تماماً أنه سيموت . " [2]

ولقد ميّز فرويد بين نوعين من القلق :" القلق الموضوعي الذي هو استجابة واقعية للخطر المدرك والناجم عن البيئة، ويوازي هذا المفهوم للقلق مفهوم الخوف ، أما النوع الثاني فهو القلق العصابي الناجم عن صراع لا شعوري داخل الفرد، لا يكون الفرد عادة على وعي بأسبابه ،ونحسب أن قلق ابن خفاجة هو من النوع الثاني أي القلق العصابي."[3]

وبناء على هذا فإن الإنسان كما أسلفنا هو المخلوق الوحيد الذي يعي حقيقة الموت ، فلا غرو أن يسيطر هذا الهاجس على عقول البشر ، يقول باسكال " إنني في حالة جهل تام بكل شيء ، فكل ما أعرفه هو أنني لابد أن أموت يوما ما ، ولكنني أجهل كل الجهل هذا الموت الذي لا أستطيع تجنبه "

لكن من المعلوم أن الخوف من الموت يكون بدرجات متفاوتة ، وتطبيقا للمبادئ السيكولوجية العامة على هذا المجال ، نقول إن " الخوف منه بدرجة منخفضة أو متوسطة من الموت أمر سوي وعادي تماما ، في حين أن الخوف بدرجة مرتفعة أمر غير سوي أي أنه علامة مرضية شاذة ، وقد نبه على هذه الحقيقة الدكتور إحسان عباس في معرض حديثه عن إلحاح إشكالية الفناء في

[1] عبد الله محمد العضيبي ، النص وإشكالية المعنى ، ص 106.

[2] راشد عيسى ونضال الشمالي ، خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي – قصيدة الجبل أنموذجا – ، جامعة البلقاء ، الأردن ، مجلة النجاح للأبحاث ، المجلد 25 ، 2011 ، ص 1983 .

[3] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

ذات ابن خفاجة ، إذ لا بد على دارس شعر ابن خفاجة المرور على بعض مشاهد هذا الشاعر في حياته ، تلك التي تفسر كثيرا من تصرفاته الشعرية ."[1]

ولعل من الشواهد التي تسعفنا في هذا القلق النفسي ، فقدانه لإخوانه ورفاقه على درب الأدب ، فندبهم وشعر بالوحشة من بعدهم حتى إنه " كان يخرج من جزيرة شقر في أكثر الأوقات إلى بعض تلك الجبال التي تقترب من الجزيرة وحده ، فكان إذا صار بين جبلين نادى بأعلى صوته :يا إبراهيم تموت ؟ – يعني نفسه – فيجيبه الصوت ، فلا يزال كذلك حتى يخر مغشيا عليه."[2]

إضافة إلى ذلك فإن سيطرة قلق الموت لا تتم إلا بتحقيق جو مناسب له ، وأقصد بذلك الوحدة ، التي عانى منها ابن خفاجة كثيرا ومما زاد في ذلك عزوفه عن الزواج فبات بمعزل عن الشريك والولد .

و لا جَـارَ إلا مِـنْ حُـسَامٍ مُصَمَّـمٍ ولا دَارَ إلا فِـي قُـتُـودِ الرَكَائِبِ
ولا أنْـسَ إلاَّ أنْ أُضَـاحِـكَ سَـاعَـةً ثُغُورَ الأمَـانِي فِي وُجُـوهِ المطَالِب
بِلَيْـلٍ إذَا مَـا قُـلـتُ قَـدْ بَادَ فانْقَضَى تَكشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظنِّ كَـاذِبِ
سَحَبْتُ الـديَاجِي فِيهِ سُودَ ذَوائِـبٍ لأعتَـنـقَ الآمَـالَ بِـيـضَ تَـرَائِـبِ
فَمزَّقْتُ جِيبَ اللَّيلِ عَنْ شَخْصِ أطْلسٍ تَطلَّعَ وضَّاح المَضَاحِـكِ قَـاطِبِ
رَأيـتُ بـهِ قَـطـعًا مِنَ الفَجْرِ أغْـبَشًا تَـأمَّـلَ عَـنْ نَـجْـمٍ تَـوقَّـدَ ثَـاقِـبِ

ثم يواصل الشاعر قلقه النفسي ، مفتقرا رموز الاستقرار المتمثلة في الجار والدار ، فقد أصبح الجار سيفا يواجه به مخاطر رحلاته ، أما الدار فصارت ظهر ناقة ، دلالة على الرحيل المستمر ، ومما

[1] المرجع السابق ، ص 1983.
[2] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ص164 .

يؤكد هذه الوحدة الرهيبة افتتاحه البيت السابق بلفظة وحيدا التي تدل على خصوصية الرحلة وحالة الخوف التي تستبد بنفس الشاعر .

ثم ينتقل إلى الوحدة الجزئية الثانية في هذه القصيدة وهي الليل وهو رمز يحول دون معانقة الشاعر لآماله . فالشاعر ذاهل أمام "حركة الزمن الطويل المريب المتمثل في الليل وهو الأمر الذي ضاعف قلق الشاعر من الزمن المفضي إلى الموت المحتوم .إنه يصارع زمنا نفسيا في عقله الباطن ويحاول أن يتخلص منه بكشف صمود الجبل أمام الزمن الموضوعي . "[1]

وتزيد بعد ذلك صورة الليل بدلالتها النفسية المعبرة عن الخوف من أزمة الذات ومعاناتها ، فلا نجد هنا مهرباً من مواجهة هذا النص، "إذ يبدو فيه اللون الأسود يسيرُ صعوداً في دلالته على نوازع الشاعر النفسية؛ فيأتي الشاعر باللون الأسود بدرجات متتالية؛ بدءاً من الدجوية ثم الطلسة، فالغبرة، وهذا يعني أن اللون الأسود بدرجاته المختلفة يبدأ شديداً من ليلٍ داجٍ شديد السواد، ثم يتخفف الشاعر من هذا السواد شيئاً فشيئا وفق إحساسه بالطبيعة، إذ يخلع على ألوانها تقلبات نفسه القلقة، التي يُعلن عنها من أول أبياته في صورة ليلٍ طويل كاذب كلما سحب ذوائبه الشديدة السواد، لا ينكشف عن انقضاء، أملاً في صباح أشبه بترائب حِسانٍ بيض، ثم يكتشف أنه يُمزق عن جيب شخصٍ مُقَطب الحواجب، فيه غُبرة تضرب إلى سوادٍ ممقوتٍ "[2]، لتنكشف رؤية الشاعر النفسية حين يرى غبشة آخر الليل يُخالِطها بياض الفجر، تحمل في أحشائها أملاً في صباحٍ قد يلوح كما يلوح نجمٌ متوقدٌ ثاقب .ويُعلق حافظ المغربي على هذه الأبيات " أن آمال الشاعر التي أراد أن يولدها بيضاء من سواد الدياجي، كانت مُستحيلة حين سحبها ذوائبها، لكنه حين مزق جيوبها تخفف من الدجى إلى الطلسة مُقترباً إلى البياضٍ ، سمح له أن يتخفف من عبء قلقه في درجة لونية من الرؤية

[1] راشد عيسى ونضال الشمالي ، خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي – قصيدة الجبل أنموذجا – ، ص 1988 .

[2] زاهر بن بدر الغسيني ، علاقة اللون بالصورة الشعرية في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، جامعة السلطان قابوس ، عمان ، ص 118 .

النفسية والمادية، فتخفف ثانية من الطلسة إلى الغبشة أملاً في بياض صبح قد يُحاكي توقد نجم ثاقب يلوح "[1]

وبعدها انتقل ابن خفاجة إلى الجبل وهو الوحدة الأخيرة في القصيدة .

وأرْعَن طمَّاحِ الذُّؤابَةِ بَاذِخٍ   يُطاوِلُ أعْنَانَ السَّمَاءَ بِغَارِبِ
يَسُدُّ مَهَّبَ الريحِ عَنْ كُلِّ وجْهَةٍ   ويَزْحَمُ ليْلاً شُهبَهُ بِالمَنَاكِبِ
وَقُورٍ عَلَى ظَهْرِ الفَلاةِ كأنَّهُ   طوالَ الليالِي مُطرِقٌ فِي العَواقِبِ
يَلوثُ عَليهِ الغَيمُ سُودَ عَمائمٍ   لهَا مِنْ وَميض البرْقِ حمرَ ذَوائِبِ

نظر الشاعر إلى الجبل من زاوية الحزن ، فأبرز صفات الجبل القوية التي تؤهله للبقاء ( الرعونة ، الشموخ ، العظمة ، الوقار ) ، ثم يضيف عليه صفة لا تناسب إلا حالة الشاعر النفسية الحزينة وهي التفكير في نهاية العمر ، ومن هنا تبدأ معالم القلق بوضوح مرة أخرى ، فالجبل بات مطرقا طوال الليل مفكرا في العواقب ، والحقيقة أن الشاعر هو المطرق المتفكر .

ويبدأ إشراك الجبل إشراكا فعليا في مشروع ابن خفاجة الحزين الذي يديره القلق والانفعال النفسي في قوله :

أَصَخْتُ إليْهِ وَهْوَ أخْرَسُ صَامِتٌ   فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السُّرَى بِالعَجَائِبِ
وَقَالَ ألَا كَمْ كُنْتُ مَلجَأً فَاتِكٍ   وَمَوطِنَ أوَّاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبِ
وكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدلجٍ ومُؤَوِّبٍ   وقَال بِظلِّي مِنْ مَطيٍّ و رَاكِبِ
ولاطمَ مِنْ نَكبِ الرِيَّاحِ مَعَاطِفِي   وزَاحَمَ مِنْ خُضْرِ البِحَارِ جَوانِبِي
فمَا كان إلا أنْ طوتْهُم يَدُ الرَدَى   وطارتْ بِهِمْ ريحُ النَّوَى والنَّوَائِبِ
فمَا خفْقُ أيْكِي غيْرُ رجْفَةِ أضْلعٍ   ولا نوحُ ورقِيٍّ غيرُ صَرخةِ نَادبِ

[1] حافظ المغربي ، صورة اللون في الشعر الأندلسي ، دار المناهل للطباعة والنشر ، الأردن ، ط 1 ، ص 36 .

ومَا غيَّضَ السُلوانُ دَمْعِي وإنَّـــمَا نزفـتُ دُمُوعـي فِي فِراقِ الأصَاحِبِ

فحتَّى مَتَى أبْقَى ويظعَـنُ صَاحِبٌ أودِّعُ منــــهُ راحِلاً غــيــرَ آيِـــبِ

وحَتَّى مَتَى أرْعَى الكواكبَ سَاهِرًا فَمِـنْ طـالـعٍ أخْـرَى الليَالي وغَارِبِ

ينطق الجبل بشريط الحياة المتواصل ،" فالجبل قد عاصر أجيالا متتابعة فاجتمع لديه الفاتك والناسك والمدلج و المؤوب والبحار والشموس والأقمار والكواكب ،وبعد أن ينتهي الشاعر من حشد كمِّ المتناقضات يطلق على الجبل فكره القلق عندما تطويهم أجمعين يد الردى ، وتطير بهم حيث النوى والبعد ، والشاعر بهذا الإنطاق يتماهى مع الجبل ناطقا بلسانه فيسقط ذاته على الجبل ، مما يعني زيادة الرابطة العاطفية بينه وبين مفردات الطبيعة . إلى أن يصل الشاعر إلى مرحلة من التماهي الكلي مع الجبل حتى إنه ليلتبس علينا الأمر في معرفة المتحدث الآني أهو الجبل أم الشاعر"[1]:

فحَتّى مَتَى أبقَى ويَظعَنُ صَاحبٌ أودِّعُ مِنْهُ رَاحِلاً غَيْرَ آيِبِ

إن المتحدث المفترض هنا هو الجبل ، لكن الباعث الحقيقي لهذه المعاني هو الشاعر الذي أقلقه هاجس الموت ، ففقدَ الثقة بانتظام سير الحياة ، فهمه بات مسقطا على لسان الجبل .

"وفي غمرة هذا التماهي نجد أن الجبل قد اكتملت صورته الإنسانية تماما ، فهو يبكي ويتحدث ويشعر ويسهر ويتضرع لربه ، والشاعر في الحقيقة هو من ينفذ كل ذلك .لقد وظف الشاعر الجبل ليسليه عن همه . ولكن التسلية جاءت على حساب الجبل الذي أسبغت عليه صفات بشرية كانت سوف تسلبه صفة البقاء على مر العصور."[2]

ولقد كان اختيار الشاعر للجبل اختيارا يناسب توجهه النفسي المأزوم بالقلق تلبية لمبدأ التعويض ، حين أسقط نفسه بطبائعها الإنسانية على الجبل ، ليقوم الجبل نيابة عنه بالخلود ، فالجبل هو من يمتلك صفة تقيه شر الموت ، مما دفع الشاعر إلى الولوج إلى ذات الجبل علَّه يمتلك شيئا من

[1] راشد عيسى ونضال الشمالي ، خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي – قصيدة الجبل أنموذجا – ، ص 1988 .

[2] المرجع نفسه ، الصفحة نفسها .

صفاته ولو لوقت قصير ، إن إقبال الشاعر على الجبل كان إقبالا جليا نحو من يكمّل له نقصا أحسه عميقا في ذاته .

وختاما فقد كان حديث الجبل عظة بالغة للشاعر ، " أيقن خلالها أن الرحيل بكل ما فيه من معاناة ومخاطر أهون من الإقامة الدائمة التي أفضت بالجبل إلى تمني الموت ، نتيجة السأم الذي ملأ جوانبه . كما كان ذلك تسلية وتسرية له في رحلته . ولهذا فإنه في البيت الأخير من القصيدة يعلن مواصلة رحيله غير عابئ بما يواجهه من أخطار"[1] . فتجربته مع الجبل أحدثت تحولا في تفكيره ، إذ بعد أن كان في بداية قصيدته يعاني قلق الرحيل أصبح في نهايتها منسجما معه ، ومؤمنا بإيجابياته ،وقد ترجم الشاعر أحزانه بعد أن تطهَّر منها عندما حصر الحياة بحالة من اثنين المقيم الذي يمثله الشاعر والذاهب الذي يترقب الشاعر الانتقال إليه :

فَأسْمَعَنِــي مِنْ وَعظـهِ كُـلَّ عِبْرَةٍ　　　يُترجمُهَا عَنْهُ لسَــانُ التَّجَــارِبِ

فَسَلىَّ بمَا أبْكَى وسَرَّى بمَا شَجَا　　　وكانَ عَلىَ لَيْل السُّرَى خيرَ صَاحِبِ

وقلتُ وقدْ نَكَّبْتُ عَنْهُ لطيَّةٍ　　　سلامٌ فإنَّا مِنْ مُقِيمٍ وذَاهِـــبِ

[1] عبد الله محمد العضيبي ، النص وإشكالية المعنى ، ص 110.

## الأبعاد الجمالية :

### أ)اللغة :

إن الدراسة الجمالية هي البعد التأثيري أو النص في جانب المتلقي ، ففي بادئ الأمر قد جاءت لغة النص جزلة قوية الألفاظ فخمة العبارات ، فالشاعر يعمد إلى الألفاظ الضخمة الفخمة ذات الجرس القوي والوقع الشديد ، وقد جاءت في النص فصيحة كلها يتخللها اللفظ الحوشي أحيانا مثل ( أرعن ، طماح ، الذؤابة ، باذخ ....) فهي كلمات مغرقة في الكلاسيكية ، كما استغلقت بعض معانيه على القراء ، أما التراكيب فهي فصيحة متلائمة متناسقة ، متوائمة حسنة السبك ، لا اضطراب فيها ولا ضعف .

أما عن صفات لغة النص من حيث الحسي والمعنوي، والواقع والرمز فإن الملاحظ أن الكلمات ذات المدلول المعنوي أوفر بكثير من الكلمات ذات المدلول المادي ، ذلك لأن الكلمات المعنوية وثيقة الصلة بحياة الشاعر وأوضاعه ، كما أن حالة القلق والضجر التي أفرغها الشاعر على الجبل تتطلب منه أن يكون معجمه المعنوي أوفر من المادي ، ومع ذلك فلا يخلو النص من هذا الأخير .

أما عن اللغة من جانب الواقع والرمز "فقد استعمل ابن خفاجة – ككل أديب – كلمات وعبارات بدلالتين متراكمتين ، أحداهما واقعية والأخرى رمزية ، الأولى تشخص ظاهرا ملموسا ، والثانية توحي بمعاني خفية ، كمثل ( وقورٍ على ظهر الفلاة )،يعني الجبل والشيخ ...، فكل واحد من هذه الكلمات تدل على شيء واضح ، وتوحي بمعنى غامض يتداخل فيه الواقع والرمز." [1]

أما فيما يخص الحقول فبعد القراءة المتأنية الفاحصة وجدنا أن المفردات تنتمي لحقولَ شتى ، وهي كالتالي :

حقل الطبيعة : وهو من أكثر الحقول حضورا ويتمثل في ( الريح، الليل، البحار، الكواكب ،السماء ، الفلاة ...)

[1] سعد بوفلاقة ، في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات لأخرى ، ص 33 .

حقل الأخلاق : لا يخلو النص من المصطلح الديني فقد توفر في النص إلى حد ما، مثل ( وقور ، أواه ، تبتل ، تائب ، دعوة ضارع ، راحة راغب ) فكل هذه الكلمات ذات صلة دينية تنتسب كلها إلى المعجم الأخلاقي ( الخير أو الشر ) [1].

أما بالتحليل المدقق للقصيدة وبدءا بمطلعها :

بِعيشِكَ هَلْ تَدْرِي أَهَوْجُ الجَنَائِبِ تَخُبُّ بِرَحْلِي أَمْ ظهُورُ النَّجَائِبِ

هناك فضاء صوتي حقق انسجاما على مستوى المخارج في الأصوات ونوع من الموسيقية ، ناهيك عن المصرعين أي هناك في الضرب وقعٌ يوازيه آخر في العروض ، فنجد ترتيبا للحروف ترتيبا مكانيا في كلٍّ من الصدر والعجز ، فالباء في "بعيشك" تقابلها الباء في " تخبُّ" والراء في نصف الصدر في "تدري" تقابلها الراء في نصف العجز في " ظهور " .وكذا حدوث التجنيس الذي أدى إلى جمالية التلقي .

كما أن استهلال الشاعر قصيدته بالاستفهام أعطى عضوية للنص ، والاستفهام في هذا المقام هو شبيهه في المقال ، وهو إشراك المتلقي ، وقد يكون إشراك الشاعر لنفسه ، فالصورة الاستفهامية أعطت المتانة والتواصل الدلالي وجمع أشتات المعنى بالاستفهام ، وقد تمثلت الجمالية الحقة في البيت الأول في إعطاء الرضى والألفة والتي تسوق القارئ إلى تلقي النص فيما بعد، فكأن الشاعر يستحلف المتلقي من خلال بيته الأول .

كما تمثلت الجمالية في الغرابة والمتمثلة في توظيف الرياح وهو جو مناخي غير ثابت ، مع التأكيد على الاضطراب والقوة ب "أَهَوْجُ" ، والنجائب كذلك غير مستقرة أي أنها هي كسابقتها في حالة تموج ، وكأنه يريد إعطاء قناعة بحالة تموج .

كما أنه استعار الحروف الحلقية ( ع ، ه ، ج ) لأن المشكلة وصلت إلى أعماقها ،فكان من خلال ذلك إثارة قضايا بعيدة كبعد الجانب الحلقي في الجانب الصوتي .

[1] المرجع السابق ، ص 32.

ثم يأتي التداعي والتوليد والتفصيل في الأبيات الأخرى ، ففي قوله "فما لحتُ " دلالة الاستئناف والتوزيع الجغرافي مجددا .

وحِيـــدًا تَهادَانِي الفَيَافِي فَأَجْـــــــتَلِي        وُجُـــــوهَ المَنَايَا فِي قِنَاعِ الغَيَاهِـــبِ

في صدر البيت جاءت وحيدا بالحالية لقوة التأثير والخوف من كل شيء ، ووردت الفيافي بالجمع لأن الوحدة تتسع كلما اتسع المكان ، أي أنه وضع التحييز، أي رسم صورة للوحدة ضمن أنساق من الفراغات وطرح قضية وجودية وهي ضآلة الذات كصغر الكينونة داخل عالم لا يحمل في طياته سوى وجوه المنايا ، والتي جاءت هي كذلك بالجمع مع أن المنية واحدة لا تحتاج لأن تتعدى أو تجمع .

ويبدأ الشاعر بتحديد الإطار الذي يمثل ذاته في قوله :

و لا جَـارَ إلا مِـنْ حُسَامٍ مُصَمَّـــمٍ        ولا دَارَ إلا فِـــي قُـتُـــودِ الرَكَائِـــبِ

والغريب أن الشاعر بدأ بتعريف ذاته بالنفي لا الإثبات ، والمتعارف أن التعريف يأتي إثباتا لا نفيا ، وهو ما يخلق نوعا من الانزياح في الفضاء النصي ، فهو لم يثبت لنفسه أشياء بل نفاها عنها ، فقال "لا جارَ" و"لا دارَ" و " لا أنسَ" وكل هذا متعلق بالحال "وَحِيدًا " وهذا نوع من التوليد ، أي يخلق الشاعر من النموذج مجموعة من النماذج أو يولد من المعنى معاني أخرى، أو يبدأ من الكليات ثم يجزئ وهو الحال في الشعر الحر غالبا ، كما أن البيت فيه من الطرافة والجمال الشيء الكثير فالشاعر ينفي أن له جارا ،وجاء بلا النافية للجنس ثم يستثني ليكون المستثنى شيئا غريبا وهو السيف، ويقول لا دار ثم يستثني فيكون المستثنى شيئا أغرب وهو ظهور الإبل ، وأي استقرار هذا ، وكأنه أراد القول أنه لا يستقر إطلاقا ، أو حتى استقراره يكون في حالة حركة ، والجميل هنا هو مفاجأة القارئ بحالة ظاهرها الاستقرار وباطنها من قبله عدم الاستقرار ، كما أن الإشباع بالألف تكرَّر مرارا ( جار ، حسام ، دار، الركائب ، أضاحك ،ساعة ...) يدل على الإشباع من جهة وعلى أن الشاعر في حالة بث وشكوى من جهة أخرى .

ولا أنْـسَ إلاَّ أنْ أُضَـاحِـــكَ سَـاعَـــةً        ثُغُورَ الأمَـانِي فِي وُجُوهِ المطَالِـــبِ

ثم يخلق جوًّا جماليا آخر ، فقد جاءت "لا أنس "تحت " لا جار " وتحت " وحيدا " وهذا ما يجعل المتلقي في انسجام مع المعنى ، وينفي الأنس ثم يثبت وكأنه يحيل إلى حالة أنس قد ظفر بها بعد لأي ، لكنه يحيل مجددا إلى حالة سيئة جدا وهو قوله "أضاحِكَ ساعةً " وجاء "بأضاحك" على وزن "أفاعلَ" والفعل الثلاثي إذا عدي بالألف يكون للدلالة على المشاركة ، وذهابه إلى هذا النوع من الصيغ اللغوية أو الإشتقاق دليل على حاجته الماسة للأنيس. والمضاحكة هنا أو المشاركة وهمية من جانبين وهما أولا قوله "ساعةً " أي نوع من التحقيب الزمني ، وثانيا لا يضاحك أنيسا أو شخصا ما بل يضاحك الأماني ،والأماني ليست الرجاء ، وهو شيء مستحيل كقوله تعالى " تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ " أو قول الشاعر :

أيَا سِرْبَ القَطَا هَلْ مَنْ يُعِيرُ جَنَاحَهُ لَعَـلِّي إلَى مَـنْ قَـدْ هَوَيْتُ أَطيـرُ

وهذا ليس من الحقيقة في حال .

ثم ينتقل إلى :

بِلـيْـلٍ إذَا مَـا قُـلـتُ قَـدْ بَادَ فانْقَضَـى تَكشَّفَ عَنْ وَعْدٍ مِنَ الظنِّ كَــاذِبِ

سَحَبْتُ الـديَاجِـي فِـيـهِ سُودَ ذَوائِــبٍ لأعتَنـقَ الآمَـالَ بِـيـضَ تَـرَائِــبِ

فَمزَّقْتُ جَيْبَ اللَّيلِ عَنْ شَخْـصِ أطْلسٍ تَـطلَّـعَ وضَّاحَ المَضاحِـكِ قَـاطِــبِ

رَأيـتُ بـهِ قَـطـعًـا مِنَ الفَجْــر أغْــبَشًا تَـأمَّـلَ عَـنْ نَـجْـمٍ تَـوقَّـدَ ثـاقِــبِ

ابتدر بالليل وهو يعد زمنا للنص والتجربة في القديم ، واتخذه الشاعر سميرا له . والجميل أن الشاعر قد ظن أن بانقضاء زمن التجربة ينقضي الهم.

كما أن الأطلس أو الذئب فرض على البيت حرف الطاء ، وهو جديد أيضا في النسق السردي ، إذ تحول النص من التوصيف إلى السرد .وشاع الطاء فيما بعد ( تطلَّعَ ، قاطبِ ، قطْعًا ..).

ونلاحظ كذلك أنَّ الشاعر قد فصل بين الصفة والموصوف في البيتين ، بين قاطبٍ والموصوف أطلسٍ ، وبين نجمٍ والصفة ثاقبٍ ، وجاء الفصل بين الصفة والموصوف بجمل فعلية للدلالة على الحركية والدينامية والتدفق داخل النص . لكسر رتابة الثبات عن طريق المتواليات الوصفية الاسمية .

كما أن حرف الجيم قد شاع في هاته الأبيات ( الدياجِي ، جِيب ، نجْمٍ ، الفَجر ) والجيم فيه نوع من التعطيش ،والتعطش نوع من الفقد و الحاجة إلى الماء ، إذ يجعل الشاعر بالجيم المتلقي يعيش حالة الفقد والتعطش .

وأرْعَـــنَ طـمَّـاحَ الــذُّؤابَـةِ بَـاذِخٍ يُـطـاوِلُ أعْنَـانَ الـسَّـمَـاءَ بِغَـــارِبِ

يَسُــدُّ مَـهَّـبَ الـريحِ عَـنْ كُـلِّ وجْهَةٍ ويَـزْحَمُ لـيْـلاً شُهبَهُ بِالـمَنَـاكِـبِ

وَقُـــورٍ عَـلَى ظَـهْـرِ الـفَـلاةِ كَـأنَّـهُ طـوالَ الليالِي مُطـرِقٌ فِي العَــواقِبِ

يَــلوثُ عَلـيـهِ الــغَـيمُ سُودَ عَمائمٍ لـهَا مِنْ وَميض البرْقِ حـمرَ ذَوائِبِ

جاء الشاعر بواو رُبَّ للتقليل في بداية البيت ، أي أن التجربة قليلة في مواجهة جبل طمَّاح عظيم ، فالشعراء عندما يعالجون قضية نفسية يخيل أنهم هم الوحيدون الذين عاشوا تلك التجربة ، ولو كانت هاته التجربة كثيرة متكررة لما شغل نفسه بها أولا ولا شغل بها المتلقي ثانيا .

وقال " يطاول" أي أعاد المشاركة من جديد دلالة على عظم الشاعر، هذا لو أننا اعتبرنا الجبل معادلا موضوعيا للشاعر ، ويعود بنا هذا البيت إلى البيت الثاني :

فَمَـا لـــحُتُ في أُولى المشَارق كوكَـبًا فأشرَقْتُ إلا جُبْتُ أخْرَى المَغَـــارِبِ

وفي البيت شيء مبطن خلق جمالية ، وهو نوع من الاعتزار فالشاعر ليس أي شاعر وليس أي تائه ، حتى أن الجبل ليس أي جبل بل هو جبل الشاعر ، ولو وقف أمامه أي رجل نكرة لما رآه سامقا شامخا.

وهناك جمالية أخرى تمثلت في تحرر الشاعر مما ذكره آنفا ، فالوحدة أصبحت وقارا ،والفيافي بعدما كانت بصيغة الجمع أضحَتْ فلاةً واحدة بعدما قورنت بضخامة الجبل أو الشاعر ، واجتلاء

وجوه المنايا أصبح إطراقا في العواقب ، كل هذا يخلق ارتياحا لدى المتلقي ، وكذا جاء بلفظة "سود " و "البرق" وهي للجنس وعمائم للقلة ، بعدما كانت جموع كثرة في أول القصيدة ، وهذا يدل على أن توظيف هذا الاشتقاق دلالة على ضآلة معطيات الطبيعة أمام الجبل .

وتكتمل مشاهد الجمالية في القصيدة من خلال الأبيات التالية :

أَصَخْتُ إلَيْهِ وَهْوَ أخْرَسُ صَامِتٌ فَحَدَّثَنِي لَيْلُ السُّرَى بِالعَجَائِبِ

وَقَالَ أَلَا كَمْ كُنْتُ مَلجَأَ فَاتِكٍ وَمَوطِنَ أوَّاهٍ تَبَتَّلَ تَائِبِ

وكَمْ مَرَّ بِي مِنْ مُدلجٍ ومُؤَوِّبٍ وقَال بِظَلِّي مِنْ مَطِيٍّ و رَاكِبِ

ولاطَمَ مِنْ نَكبِ الرِيَّاحِ مَعَاطِفِي وزَاحَمَ مِنْ خُضْرِ البِحَارِ جَوانِبِي

فقال "أصختُ" وهي الرغبة في الاستماع وهذا ما دل على حالة توازن دخل إليها الشاعر ، ثم جاء بالمعنى ونقيضه فقال " وهو أخرس " فلا يعقل أن يصيخ أحد إلى أخرس ، وهذا النوع من التضاد أو الجدلية أو الانزياح الدلالي أثار المتلقي للرغبة في استكمال المشهد .

والملاحظ أن البيت مليء بالسكون ( الخاء في "أصَخْتُ" ، والياء في "إليْه" ، والهاء في "وهْوَ" والتي اضطرته الضرورة الشعرية لتسكينها، والتضعيف في كل من " حدَّثني " و " السُّرى "... ) والتضعيف جاء لتكرار السكون ، والغريب أن تكرار السكون جاء في بيت يتحدث عن الخرس والصمت ، وكأنه أراد أن يجعل المتلقي في حالة من الهدوء والصمت كي يشاركه لحظة التجلي مع الجبل .

ونجد الشاعر يضيف من المتناقضات في القصيدة والمتضادات ليدل على الرحابة والاستيعاب(مدلج ومؤوب ، مطي وراكب ) .

كما أن ثقافة الشاعر قد تجلت في شعره مما خلق جمالية فذّة، من خلال إعطاء الجبل حضورا زمانيا تاريخيا ومكانيا ، فهو ليس جبل زمن الشاعر فحسب ، بل يتعداه إلى زمن آخر وهو ما دل عليه قوله :

ولاطـــــــمَ مِـنْ نَـكـبِ الـرِيَّاحِ مَعَاطـفِي وزَاحَمَ مِنْ خُـضْــرِ البِــحَارِ جَوانِبِي

فالشاعر تحدث قبل هذا عن الفيافي وامتدادها ولم يتحدث عن الماء إطلاقا ، فقال أنه عرضة للرياح وكذا هو عرضة للبحار ، وهذا دلالة واضحة على أن الأرض تتغير وليس لها قرار كالشاعر ، فالأرض قد تكون برّا يابسةً وقد تكون بعد أزمنة بحارا ، لكن الجبل لا يزال رابضا مكانه ، فالشاعر لم يصعد الجبل على قارب وإنما ترجّل والدليل على ذلك رؤيته للذئب ، والذئب لا يعيش في البحر ، فهو لا يقف على تجربته الخاصة ، بل يسوق تجارب أخرى للدلالة على ثقافته، ولفتته للاستيعاب التاريخي ، ثم يطرح بذلك قضية الذات والوجود ، وكينونة الإنسان وتحولات الوجود حوله زمانا ومكانا مع معطيات كثيرة تتحول وتتغير حول هذه الذات وهي التي تثمر تحولا في الأفكار والذهنيات.

وفي ختام قصيدته ينقل رؤيا للمتلقي مفادها أن التجربة هي محاولة لمساءلة الذات وما ينبغي أن تكون عليه هاته الذات أمام النوائب والمتغيرات التي تعروها ، في لغة راقية تَنِمُّ عن شاعرية حقَّة .

## الـصـورة :

تشكل الصورة الشعرية أبرز ظاهرة أسلوبية طبعت نص ابن خفاجة ، باعتبارها تجسيدا وتصويرا لرؤية رمزية للمعنى المتضمن في الألفاظ ، ولقد تبين من خلال الاستقراء والتتبع للنص أن أبرز الصور الشعرية وأكثرها انتشارا هي تلك التي اعتمدت على الاستعارة ، فلا نكاد نجد بيتا واحدا عاريا منها، وتعود هيمنة الاستعارة على الصورة الشعرية في شعر ابن خفاجة إلى " أهمية هذه الصورة وعمقها ، لأن الاستعارة وجه بلاغي تنتقل به دلالة اللفظ الحقيقية إلى دلالة أخرى لا تتناسب مع الأولى إلا من خلال تشبيه مضمر في الفكر ، وهي صورة مقتضبة من صور التشبيه ."[1]

ولعل أجمل ما وفق إليه الشاعر هو تشخيص الجبل ، فجعله طماحا يطاول أعنان السماء(البيت العاشر) ، ويسد مهب الريح ، ويزاحم النجوم بمنكبيه ( البيت الحادي عشر ) .

وصوره على وجه الاستعارة المكنية مهيبا جليلا ، وقورا مطرقا ، فحذف المشبه به الشيخ وأشار بأحد لوازمه ألا وهي الإطراق .

كما أن الشاعر قد نسب للجبل التفكير فأنطقه ، وهو ما يسمى بالاستعارات المتعددة أو الخيال المؤلف ، لأنه يؤلف بين مناظر مختلفة .

والملاحظ أنه اعتمد كذلك على الصورة التشبيهية حين جمع مجموعة من الصور الاستعارية والتشبيهية في سياق واحد ، وعلى أشكال متعددة ومتعلقة بالجبل ، فخلق جوا خياليا خاصا كما في قوله :

وَقُـــورٍ عَـــلَى ظَـــهْرِ الـفَـلاةِ كـأَنَّـهُ  طـوالَ الليالِي مُطـرقٌ فِي العَـــواقِبِ

كما تمثل جمال الصورة جليا في قوله " قناع الغياهب " وهو أجمل أنواع التشبيه ، وهو تشبيه مضاف وهو أحد أنواع التشبيه البليغ .

[1] عبد القاهر الجرجاني ، أسرار البلاغة ، ت محمود محمد شاكر ، مطبعة المدني القاهرة ، دت ، ص 20.

كما أن التشبيه الجلي بتوفر أطرافه لم يكن ظاهرا في الفضاء النصي باستثناء قوله :

"كأنه طوال الليالي مطرق في العواقب " ويقصد الجبلَ.

وقد عمد ابن خفاجة أيضا إلى الصور الكنائية ، معتمدا في بنائها على الطبيعة الصامتة ، ففي قوله :

يَسُــدُّ مَـهَّـبَ الـريحِ عَـنْ كُـــلِّ وجْهَةٍ ويَــزْحَمُ ليْـلاً شُهبَهُ بِالـمَنَـاكِـــبِ

كناية عن ضخامة الجبل وعلوه وارتفاعه .

وفي قوله :

فَمَـا لـــحُتُ في أُولى المشَارق كوكَـبًا فأشرَقْتُ إلا جُبْتُ أخْرَى المَغَـــارِبِ

كنى بالمشارق عن صغر سنه وشبابه وعنفوانه ، وعن المغارب بكبره وشيخوخته .

# خاتمة

# خـــاتـــمـــــة

وختاما الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات وبتوفيقه تُبلغ الغايات ،وبمنه وكرمه تُذلَّل الصعوبات، والصلاة والسلام على خير البريات ، وبعد فإن دراستنا التي مست شاعرا من شعراء وصف الطبيعة الذين أولوها اهتماما بالغا ألا وهو ابن خفاجة قد أضفت بعد المناقشة والتحليل الخروج بالنتائج التالية :

1) وصف الطبيعة في الشعر العربي ليس جانبا وصفيا فنيا فحسب وإنما هو صورة تاريخية من جانب آخر تبرز بيئة الشاعر وما كان يبصره في واقعه .

2) احتلال الطبيعة بنوعيها المتحركة والصامتة حيزا كبيرا في الشعر العربي ، مما أبرزت بذلك صدق مشاعر صاحبها وتجربته ودورها في البناء الشعري عبر الوظيفة التي تؤديها .

3) بلغت الأماكن الطبيعية والمائية حيزا كبيرا في الشعر الأندلسي ، فوصف الشعراء الرياض والحدائق الغنَّاء والزهور والنبات والجبال والماء الرقراق الذي تهواه النفوس العطشة .

4) يمكننا القول أن ابن خفاجة يعتبر شاعرا بامتياز ، ومصورا ماهرا للمشاهد الطبيعية المنبثقة من امتزاج الحقيقة بالخيال ، فقد أبدع الشاعر في وصفه لعديد الأمكنة الأندلسية وهو ما شاهدناه من خلال تحليلنا لقصيدة وصف الجبل .

5) لغة الشاعر قد تميزت بازدواجية واضحة في التعبير بين العفوية الواعية والعمق، حيث عبر الشاعر عن الغربة المكانية بلغة بسيطة يغلب عليها الطابع الغنائي الوجداني، وعبر عن الغربة الزمانية بلغة فيها قدر من العمق المتبلور أحيانا في بعض الصور الشعرية والأبعاد النفسية المرتبطة بها.

6) عبر ابن خفاجة بالصورة واعتمد عليها كثيرا في تشكيل رؤيته الشعرية والتعبير عن تجربته وأحاسيسه، وكانت الصورة عنده تصدر عن مصدرين مهمين هما عاطفة الشاعر، ومظاهر الطبيعة والكون، وقد تعددت مجالاتها عنده، وكان أهم ماميزها ارتباطها بالموقف النفسي للشاعر وصدورها عن وحي التجربة الشعورية له،ولعل أبرز صوره التي عبر بها :صورة الجبل التشخيصية.

7) أسهمت الموسيقى الشعرية أيضا في إبراز تجربة ابن خفاجة وتلونت هي الأخرى بعاطفة الشاعر وحملت رؤيته الشعرية من خلال إيقاع خارجي وداخلي تميز بالثراء الموسيقي والنغمية المؤثرة، واستطاع الشاعر أن يكيف الموسيقى الخارجية مع عناصر الموسيقى الداخلية لإحداث التأثير والزيادة في عنصر التطريب والتنغيم، هذا الأخير الذي أثراه الشاعر بفضل التكرار والتلوين الإيقاعي والبديع اللفظي والمعنوي.

وكل ما نرجوه هو أن نكون قد وفقنا في تقديم صورة واضحة عن الطبيعة في شعر ابن خفاجة كما هي في الواقع أو كما تمثلتها نفسه ومخيلته ممزوجة بعواطفه ومشاعره وتصوراته ، وما يردفها من أبعاد نفسية وجمالية ذوفية .

وآخر دعوانا الحمد لله رب العالمين فهو الموفق والـمُعـين .

# قائمة المصادر والمراجع

## قائمة المصادر والمراجع :


1) ابن الزقاق البلنسي ، الديوان ، تقديم عفيفة محمود إيراني ، دار الثقافة ، بيروت ، ط5،دت .

2) ابن الآبار القضاعي ، المقتضب من كتاب تحفة القادم ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، المطبعة الأميرية ، ط5 ، 1957.

3) ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تحقيق جامعة القاهرة ، ط لجنة التأليف والترجمة والنشر ، دت.

4) ابن خفاجة ، الديوان ، شرح عمر فاروق الطباع ، دار القلم ، بيروت ، دت .

5) ابن خفاجة ، الديوان ، تحقيق يوسف شكري فرحات ، دار الجيل ، بيروت ، دط ، دت .

6) أبو تمام ، الديوان ، تقديم محي الدين صبحي ، دار الأبحاث ، الجزائر ، ط 1 ، 2009.

7) أبو محمد الحجاري وآخرون ، المغرب في حلى المغرب ، تحقيق شوقي ضيف ، دار المعارف ، القاهرة ، دط ، دت .

8) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة بيروت ، دط

9) إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، دار الشروق ، عمان ، ط 3 ، 2011 .

10) أحمد بن محمد المقري التلمساني ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، دت .

11) البحتري ، الديوان ، تحقيق حسن كامل الصيرفي ، دار المعارف ،بيروت ، 1963م.

12) الخطيب التبريزي ، شرح المعلقات السبع ، ضبط محمد بن أحمد القدي ، دار المحابر ، الجزائر ، ط 2، 2011 م.

13) الزوزني ، شرح المعلقات السبع ، بيت الحكمة ، الطبعة الأولى ، 2010 .

14) العربي حسن درويش ، الشعراء المحدثون في العصر العباسي ، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب ، د ط ، 1989 م.

15) الفتح بن خاقان ، مطمح الأنفس ومسرح التأنس ، ط الجوائب ، 1302 هـ.

16) امرؤ القيس، الديوان ، تحقيق عبد الرحمان المصطاوي دار المعرفة، بيروت، الطبعة الثانية،1425هـ-2004م.

17) أوس بن حجر ، الديوان ، تحقيق محمد يوسف نجم ، دار صادر، بيروت ، ط3، 1979 .

18) جواد علي، تاريخ العرب قبل الاسلام،ج5-القسم الديني-مطبعة المجمع العلمي العراقي السابق ، 1955.

19) جودت الركابي ، في الأدب الأندلسي ، دار المعارف ، القاهرة ، دت ، 1960م .

20) حافظ المغربي ، صورة اللون في الشعر الأندلسي ، دار المناهل للطباعة والنشر ، الأردن ، ط 1 ، دت.

21) حمدان حجاجي ، حياة وآثار الشاعر الأندلسي ابن خفاجة ،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ، 1974 م.

22) حنا الفاخوري، تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت،الطبعة السادسة، دت

23) حسني عبد الجليل يوسف، الأدب الجاهلي قضايا وفنون ونصوص، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، الطبعة الأولى، 2007 م.

24) داوود سلمان الشويلي ، الطبيعة في شعر أبي تمام .

25) سيد نوفل ، شعر الطبيعة في الأدب العربي ، دار المعارف ،بيروت، ط 2 ، 1878 م .

26) شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي ( العصر العباسي الأول ) ، دار المعارف القاهرة ، ط 15 ، دت.

27) صالح اليظي ، البحتري بين نقاد عصره ، دار الأندلس ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1982 م.

28) عبد الله محمد العضيبي ، النص وإشكالية المعنى ، منشورات الاختلاف ، الجزائر ، ط1 ، 2009 م .

29) عبد الله بن المعتز، الديوان ، دار صادر،بيروت، الطبعة الثالثة ، 1961 م .

30) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، دت.

31) عبد العظيم علي قناوي، الوصف في الشعر العربي، مطبعة مصطفى الباني الجلبي وأولاده بمصر، الطبعة الأولى، 1368هـ-1949م.

32) عبد الرحمان عبد الحميد علي ، تاريخ الأدب في العصر الجاهلي ، دار الكتاب الحديث ، القاهرة ، د ت ، 1428هـ ، 2008 م .

33) عبد الله التطاوي ، القصيدة العباسية قضايا واتجاهات ، دار غريب ، القاهرة، دت .

34) عيسى خليل محسن ، أمراء الشعر الأندلسي ، دار جرير للنشر والتوزيع ، عمان ، ط 1 ، 2007 م .

35) علي غريب محمد شناوي ، دراسات في الشعر الأندلسي ، مكتبة الآداب ، جامعة المنصورة التشجيعية ، ط1 ، 2003 م.

36) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ، تحقيق محمد سعيد العريان، دط، القاهرة، 1947 م.

37) فوزي عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين ، دار الوفاء ، الاسكندرية ، ط1 ، 2007م .

38) محمد رضوان الداية ، في الأدب الأندلسي ، دار الفكر، دمشق ،ط 1، 2000 م.

39) محمد رضوان الداية ، المختار من الشعر الأندلسي ، دار الفكر ، دمشق ، ط 3 ، 1992 م.

40) محمود نافع ، اتجاهات الشعر الأندلسي ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، 1990 م.

41) مصطفى الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه ، دار العلم للملايين، بيروت ، ط 12 ، 2008 م .

42) مصطفى الشكعة ،الشعر والشعراء في العصر العباسي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ط 6 ، 1986 م.

43) محمد خفاجى ، الحياة الأدبية في العصر العباسي ، دار الوفاء ، الاسكندرية، 2003 م .

44) موهوب مصطفاي ، الرمزية عند البحتري ، صدر عن وزارة الثقافة ، الطبعة الأولى ، 2007 م .

45) نوري حمودي القيسي ، الطبيعة في الشعر الجاهلي ، دار الإرشاد للنشر والتوزيع ، بيروت ، الطبعة الأولى ، 1970 م .

46) نورة الشملان، أبو ذؤيب الهذلي حياته وشعره، شركة الطباعة العربية السعودية، الرياض، الطبعة الأولى، 1980م.

**المجلات والمذكرات :**

1) بومدين كروم ، الطبيعة في شعر ابن خفاجة الأندلسي ( رسالة ماجستير ) جامعة دمشق ، 1983 م.

2) حنان اسماعيل أحمد عمايرة ، الأثر المشرقي في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، جامعة دمشق ، مج 27 ، العدد 1 + 2 ، 2011 م .

3) راشد عيسى ونضال الشمالي ،خطاب الموت في شعر ابن خفاجة الأندلسي- قصيدة الجبل أنموذجا - ، جامعة البلقاء ، الأردن ، مجلة النجاح للأبحاث ، المجلد 25 ، 2011 م.

4) رائدة زهدي رشيد حسن ، الماء في شعر البحتري وابن زيدون " دراسة موازنة " ، جامعة النجاح الوطنية .

5) زاهر بن بدر الغسيني ، علاقة اللون بالصورة الشعرية في شعر ابن خفاجة الأندلسي ، جامعة السلطان قابوس ، عمان ،دت .

6) سعد بوفلاقة، في سيمياء الشعر العربي القديم ودراسات أخرى،منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين،ط1، 1425 هـ 2004 - م .

7) فتيحة دخموش ، تجربة الغربة والحنين في شعر ابن خفاجة الأندلسي ( رسالة ماجيستير ) ،جامعة قسنطينة ، 2004/ 2005 م.

8) ليلى سالم محمد مندور ، الوصف في شعر ابن المعتز " رسالة ماجستير " ،جامعة أم القرى ، مكة المكرمة .

# الفهرس

## الفهرس


| | |
|---|---|
| **مقدمة** | |
| **الفصل الأول** : وصف الطبيعة في الشعر القديم (مهاد تاريخي ). | |
| مدخل . | 5 |
| أ) في الشعر الجاهلي . | 7 |
| ب) في الشعر العباسي . | 27 |
| ج) في الشعر الأندلسي . | 42 |
| **الفصل الثاني**: قصيدة "الجبل" لابن خفاجة في ميزان الفن . | |
| 1) حياة ابن خفاجة . | 62 |
| 2) ابن خفاجة وصافا للطبيعة . | 64 |
| 3) قراءة في قصيدة الجبل لابن خفاجة . | |
| أ) نص القصيدة . | 72 |
| ب) الأبعاد النفسية . | 74 |
| ج) الأبعاد الجمالية . | |
| اللغة . | 82 |
| الصورة الشعرية . | 90 |
| **خاتمة** | 93 |
| **قائمة المصادر والمراجع** | 95 |
| **الفهرس** | 100 |